فـضل الـعـلم وأهـلـه

لفضيلة الشّيخ الخطيب الإدريسي حفظه الله تعالى

مقدّمة:

لقد رسم الشيخ الخطيب الإدريسي حفظه الله تعالى لشباب أمّة الإسلام منهجا مُتماسكا يُعين هذا الأخير على فهم طبيعة التحوّلات السّريعة التي تحصل في واقعه اليوم و ذلك من خلال عرض الحقائق الشرعية من كتاب الله عزّ و جلّ و من سنّة نبيّه صلّى الله عليه و سلم ممّا يزيده تبصّرا في طبيعة التحدّيات التي تنتظره في المرحلة المقبلة التي وجب أن تستعدّ لها الأمّة جميعا فهي مرحلة ملاحم و مواجهات مع أعداء هذه الأمّة.

كيف تستعدّ إلى المرحلة المقبلة ؟

هذا السّؤال يكاد يكون الموضوع الرّئيسي الذي يتطرّق إليه الشيخ في محاضراته كلّها و لكن من زوايا أو محاور مُتعدّدة. هذه المحاور التي استنبطناها من كلامه حفظه الله تصلح لكي تكون مقياسا تُقاس به أعمال الفرد و الجماعة على حدّ سواء. ففي المحور الأول و هو محور بيان "فضل العلم و أهله" يتفطّن الفرد و كذلك الجماعة التي تريد أن تنصر هذا الدّين إلى ضرورة العودة إلى كتاب الله و سنّة رسوله صلّى الله عليه و سلّم حيث النّبع الصّافي و العلم النّافع الذي به تسمو أمّة الإسلام من جديد.

المحور الثاني سمّيته محور "صفاء العقيدة" و فيه يُحذّر الشيخ حفظه الله تعالى شباب المسلمين خاصة و أمة الإسلام عامّة من تأثير بعض الفرق التي ضلّت في باب العقيدة مثل المرجئة و غيرها من الفرق التي قدّمت العقل على النّقل و قد ذكرهم حفظه الله تعالى في محاضرة باسم "الأرائيون". كذلك في هذا المحور بيان جليّ لعقائد الشيعة و خاصة الشيعة الاثنى عشرية و بيان لخطورتهم و مكائدهم التي لم تتوقّف منذ ظهورهم فالغرب يتمترس خلفهم و أكثر المسلمين في غفلة عن هذه الحقائق.

المحور الثالث سمّيته "سلامة التصوّر" و فيه يذكر الشيخ حفظه الله باستفاضة أشراط الساعة و أحداث آخر الزّمان ممّا يستدعي المسلم للتفكير بعمق في سبيل النّجاة الذي يصفه له الشيخ في محاضرة "سبيل المؤمنين" و كذلك في محاضرة "طريق التمكين" مع الحذر التام من الوقوع في الفتن و السّعي في اجتنابها لكي تغنم الأمّة و تتخطّى هذه المرحلة العصيبة التي تمرّ بها في هذه الأيام.

المحور الرّابع و هو محور في غاية الأهمّية ففي صلاحه صلاح الفرد و الجماعة و في فساده فساد الفرد و الجماعة كذلك ألا و هو "حُسن الخُلق". فحُسن الخُلق قوام كلّ جماعة تسعى لتمكين الله لها في الأرض فبه تسود و تقود و تجمع شتات المسلمين حولها و العكس بالعكس, و كما قال الشيخ حفظه الله تعالى "إذا ساءت الأخلاق ضاقت الآفاق".

المحور الخامس و الأخير فيه بيان ل"أهمّية الجماعة" و أنّها رحمة كما وصفها النّبي صلّى الله عليه و سلّم, فكلّما اجتمع المسلمون كان ذلك سببا لقوتهم و تأييدهم من الله تعالى و لا يُعقل أن تنتصر هذه الأمّة إلاّ إذا اجتمعت على كتاب الله و على سنّة نبيه صلى الله عليه و سلم.

كلّ هذه المحاور الخمس إذا اجتمعت تُمثّل قواعد راسخة يرتكز و يقوم عليها بنيان الإسلام الشّامخ الذي لا يضرّه كيد الكائدين و لا مكر الماكرين بل يظلّ قائما ثابتا إلى أن يُورث الله الأرضَ لعباده الصّالحين.

نعرض في هذه الصّفحات المحور الأوّل و الذي جمعنا فيه كلام الشيخ حفظه الله تعالى في بيان فضل العلم و أهله, و الذي سيُتبع تدريجيا بالمحاور المذكورة آنفا, فنسأل الله تعالى أن يجعل هذا العمل خالصا لوجهه الكريم و أن ينفع به كلّ مسلم.

المحور الأوّل

في

بـيـان فـضل الـعـلـم و أهـلـه

لفضيلة الشّيخ الخطيب الإدريسي حفظه الله تعالى

الفهرس

ميراث محمّد صلّى الله عليه و سلّم

لئن قلت للمسلمين هل أنتم ورثة محمّد صلى الله عليه و سلم لأجابوا جميعا دون تردّد نعم ... و الجواب غير صحيح, فإنّ ورثة النّبي صلّى الله عليه و سلّم هم العلماء و أهل العلم. العلماء و ما أقلّهم في هذا الزّمان و أقصد الرّبّانيين...لا أقصد المُوظّفين. العلماء الذين يستنير بهم النّاس في الظلمات و ما أكثر هذه الأزمات و الملمّات في هذه الأزمنة و الأمّة لا تجد حلولا, بل تتخبط والسّياسيون فشلوا في حلّ الازمات الكثيرة المتراكمة و الحلّ واحد في كتاب الله عزّ و جلّ و في سنة محمّد صلّى الله عليه و سلّم.

إذا كُنّا لا نقبل على العلم فمعنى ذلك أن نضلّ و لا نجد حلولا لهذه المشاكل الكثيرة ففي كلّ مجالات الحياة مشاكل تكفّلت الشريعة الإسلامية بحلّها فأين ورثة محمّد صلى الله عليه و سلّم ؟ هناك عزوف عن طلب العلم و هذه المدارس و المعاهد و الجامعات ليس فيها شيئ من الدّين فالنّاس يتعلّمون جهلا و يزدادون كلّما ارتقوا في التعليم هذا جهلا و بُعدًا عن الدّين فكيف نعود سادة و قادة كما كُنّا ؟ ... إلاّ إذا عُدنا إلى النّبع الصّافي القرآن و السنّة و نبحث عن الحلول بعدها و العلماء يتكفّلون بذلك فالعلماء ورثة الأنبياء و الأنبياء لم يورّثوا درهما و لا دينارا إنّما ورّثوا العلم فهذه المساجد فارغة من طُلاّب العلم, و العلم الشرعي يُطلب في المساجد أو مع الشيخ أينما كان. المقاهي ملئى و الطّرقات و الملاعب و دور الثقافة ملئى بالنّاس لكنّ المساجد فارغة من طلب العلم و النّاس ابتعدوا عن العلم الشرعي فضلّوا و أزماتهم كثيرة يعانون و الحل قريب في دين الله و في علم شرع الله.

في أثر حسن أخرجه الطبراني في الأوسط عن أبي هريرة انّه مر بسوق المدينة فوقف عليها ، فقال : " يا أهل السوق ، ما أعجزكم " قالوا : وما ذاك يا أبا هريرة ؟ قال : " ذاك ميراث رسول الله صلّى الله عليه و سلّم يُقسم ، وأنتم هاهنا لا تذهبون فتأخذون نصيبكم منه " قالوا: وأين هو ؟ قال : " في المسجد " فخرجوا سراعا إلى المسجد ، ووقف أبو هريرة لهم حتّى رجعوا ، فقال لهم : " ما لكم ؟ " قالوا : يا أبا هريرة فقد أتينا المسجد ، فدخلنا ، فلم نر فيه شيئا يقسم . فقال لهم أبو هريرة " :أما رأيتم في المسجد أحدا ؟ " قالوا : بلى ، رأينا قوما يصلون ، وقوما يقرءون القرآن ، وقوما يتذاكرون الحلال والحرام ، فقال لهم أبو هريرة " :ويحكم ، فذاك ميراث محمّد صلى الله عليه وسلم" .

هذا في النصف الأول من القرن الأول للهجرة لأنّ أبا هريرة توفّي سنة 58هـ أو قبل الستين للهجرة و حال النّاس كذلك, و لكن كانت المساجد عامرة هناك من يصلّي و هناك من يقرأ القرآن و هناك من يطلب العلم. المساجد الآن فارغة و العلم الشرعي يطلب هنا في المساجد. إذا لم نُقبل على العلم فلا خير فينا لان النّبي صلّى الله عليه و سلّم يقول "من يرد الله به خيرا يفقهه في الدّين". في هذا الأثر قوله: "فخرجوا سراعا" أي يتسابقون لعلّهم ينالوا نصيبًا من هذا الكنز -كانو يظنون - فلمّا رأوا فيه قوما يقرؤون القرآن و آخرون يُصلّون و منهم من يتذاكر في الحلال و الحرام رجعوا و لكن هذا هو ميراث محمّد صلّى الله عليه و سلّم, و إذا قل العلماء رقّ الحال و هذا حالنا.

في حديث حسن أخرجه أحمد و الطبراني في المعجم الكبير عن عبد الله بن مصعب قال سمعت حديثا منذ زمان: "إذا كنت في قوم عشرين رجلا أو أقلّ و أو أكثر و تصفّحت وجوههم فلم ترى فيهم رجلا يُهاب في الله فاعلم أنّ الأمر قد رقّ". عشرين رجلا...مائة رجل...ألف رجل...ألف ألف, ليس هناك رجل يُهاب في الله فالأمر قد رقّ, ليس هناك علماء, و ليس هناك طُلاّب علم, هناك رؤوس جهّال على رؤوس الأحزاب يتكلمون كلاما انشائيا ليس فيه دليل من الكتاب و السنّة, خطابات رنانة, همز و لمز, سبّ و شتم, هؤلاء هم رؤوس الجُهّال بينما الحلّ في قال الله و قال رسوله صلى الله عليه و سلّم, و النّاس لا يعودون لكتاب ربهم و سنة نبيهم و الحلّ هاهنا.

و فضل العلم - الذي لا يقبل عليه النّاس - خير من فضل العبادة "العبادة النافلة غير الفريضة", لو أقبلت على العلم افضل لك في الأجر و الثواب, أفضل من النافلة.

أخرج الحاكم في المستدرك عن سعد عن النّبي صلّى الله عليه و سلّم قال: قال رسول الله صلّى الله عليه و سلّم: "فضل العلم أحبُّ إليّ من فضل العبادة". إذا طلبت العلم فأنت في عبادة.

و في أثر صحيح أخرجه عبد الرّزاق في مصنّفه عن إبن عبّاس رضي الله عنهما قال: "تذاكر العلم بعض ليلة أحبّ إليّ من إحيائها". "تذاكر العلم ليلة" - لو تذاكرت العلم ساعة من الليل أفضل عبادة من أن تقوم تلك الليلة كلّها.

و في أثر صحيح قال إسحاق إبن منصور: قلت لأحمد بن حنبل: "ما قول تذاكر العلم بعض ليلة أحب إلي من إحيائها ؟ قلت: أي علم يراد" ؟ قال: "العلم الذي ينتفع به النّاس في أمر دينهم". قلت: "في الوضوء و الصّلاة و الحج و الطلاق و هذا ؟". قال: "نعم". النّاس يجهلون حتّى في الوضوء و الصّلاة و هم مستكبرون لا يتعلمون و لا يأتون إلى المسجد, و لا خير في هذه الدنيا إن لم يكن فيها علماء و طلاّب علم.

في حديث حسن رواه الترمذي و إبن ماجه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: "سمعت رسول الله صلّى الله عليه و سلّم يقول: الدّنيا ملعونة و ملعون ما فيها إلاّ ذكر الله و ما والاه وعالم أو متعلّم". – تخرج من طلوع الشمس إلى مغيبها فهي ملعونة و لا تخصّص لنفسك وقتا لطلب العلم و لو في الجمعة مرّة فإنّ الآخرة خير و أبقى, فالدنيا زائلة و الآخرة الدائمة لا تخصص لها وقتا لتتعلّم دينك ؟.

و في أثر صحيح أخرجه عبد الله بن المبارك في كتابه الزّهد عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: "الدنيا ملعونة و ملعون ما فيها الا ذكر الله و ما أواه اليه" - و العالم و المتعلّم في الأجر شريكان و سائر النّاس همج رعاع. عالم و متعلّم شريكان في الاجر و سائر النّاس همج رعاع - همج من لم يتعلم دينه...همج – ثقيلة ؟, ليست ثقيلة, انت كذلك يا من لم تتعلّم دينك أو لا تريد أن تتعلم, اكتفيت بالشهادة التي اخذتها من الجامعة لتأكل بها خبزا لتتوظف. قال الإمام الشافعي رحمه الله تعالى :

إذا رأيت الشباب الحي قد نشؤوا ... لا يحملون قلال الحبر و الورقا
و لا تراهم لدى الاشياخ في حلق ... يعون من صالح الاخبار ما اتسقا
فعدّي عنهم و دعهم انّهم ... همج قد بدلوا بعلو الهمة الحمقا

في زمانه يقول هذا - يدرس الابتدائي و الثانوي و الجامعة لا يقرأ قال الله قال رسوله - لا يصلح أمر هذه الأمّة حتّى نصحّح و نصلح مناهج التعليم. النّص لا بدّ أن يكون دينيا لنُعلّمه أبنائنا, اقرؤوا كتب أبنائكم, ألفاظ سوقية يجب أن يكون النصّ دينيا عندها نطمع أن نعود للعزة و و التمكين و الامجاد التي كنا عليها. يقول الإمام الشافعي رحمه الله: "و لا تراهم لدى الاشياخ في حلق" – العلم على المشايخ في المساجد.

الاحمق الذي لا يرى العواقب و لا يتعلم دينه و لا يدري مالعاقبة في الآخرة, و العلم بالتعلّم نسعى في طلبه, لا يأتيك العلم بل تذهب اليه و تطلبه و ليس في المدارس و الجامعات, اذهب اليه و اثن الرّكب و سر في البلاد.

في حديث صحيح أخرجه الخطيب البغدادي - حافظ المشرق وفاته سنة 463هـ عن أبي هريرة رضي الله عنه يرفعه قال:" إنّما العلمُ بالتّعلّم و إنّما الحلم بالتحلّم و من يتحرّى الخير يُعطه و من يتوقّ الشرّ يوقه " - يجب أن تتعلم و تبذل و تسير في البلاد لتتعلم العلم الشرعي الذي يُطلب بالتقوى و الإخلاص و الصّدق, و ليس هناك شهادة علمية للعلم الشرعي أبدا تُقيّم هذا لأنّ العلم الشرعي مبني على قوله تعالى:" وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ", ولا تجد جامعة أو معهدا يُعلم الصّدق و العدالة.

في أثر صحيح رواه الفسوي عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: "اغد عالما أو متعلّما و لا تقعد إمّعة بين ذاك", يقول أبو يوسف: قال أهل العلم :" و الإمّعة أهل الرّأي" - كل من لا يقول قال الله قال رسوله صلّى الله عليه و سلم هو إمّعة, ظنّي - قال الشيخ... سمعت...اظن كذا...تقريبا...أحسبُ. القرآن و السنّة علم ثابت علم صحيح لا شك فيه.

و العلم الشرعي يُطلب بالجهد و البذل, في أثر صحيح أخرجه الدّارمي في السّنن عن عامر الشعبي – متوفى سنة 104هـ تابعي جليل – قال: "لم أكتب سوداء في بيضاء قطّ و لم أستعد حديثا من إنسان مرّتين" - ما شاء الله - كان أمّيا لم يكتب أدركَ 500 صحابيا – يحفظ و إذا ذُكر حديث حفظه من الوهلة الأول, أين هؤلاء ؟ قيل له: "من أين لك هذا العلم يا شعبي ؟ قال: "بنفي الاغتمام و السّير في البلاد و الصّبر كصبر الحمام و البُكور كبُكور الغراب" – "الاغتمام" - أي لا يغتمّ, لا يهتمّ بالدنيا, إذا أنت تطلب الدنيا و العلم في قلبك لا ياتيك العلم, "و السّير في البلاد" - يجوب الدنيا, ثُمّ قال: "و الصّبر كصبر الحمام" - على البيض, "و البكور كبكور الغراب" - و الغراب من الطيور التي تبكر جدا, و النّبي صلّى الله عليه و سلّم يقول: "اللهمّ بارك لأمتي في بكورها" - فالشعبي تابعي جليل ذكي و حافظ كان توأما لأخيه, ضعيف البنية, كان من الذين خرجوا على الحجاج في فتنة عبد الرحمان إبن مهدي, وهو إبن الأشعث إبن قيس الكندي اليمني و كان من القراء فظفر به الحجاج, فلمّا دخل ظنّ أنّه مقتول فدخل على الحجّاج قال له: "مالك خرجت علي يا شعبي ؟", قال: "أصلح الله الأمير, إنّها فتنة لم نكن فيها بررة أتقياء و لا فجرة أقوياء" – كلام لطيف جدا - فعفى عنه الحجاج. يعني لو كنا بررة أتقياء ما خرجنا عليك و لو كنا فجرة أقوياء لقتلناك. سأله أحدهم قال:"يا شعبي ما اسم زوجة ابليس ؟, قال :"ذاك عرسٌ لم أحضره" - و كان ينفي القياس و له قول مشهور, و القياس يستعمله الكثير من العلماء لمّا يجهلون الدّليل و الدّليل موجود. قال: "القياس باطل, قالوا كيف ؟ قال: "إذا قتل الاحنف بن قيس و صبي ديتهما

سواء ؟ قالوا: سواء, قال كيف يكون ذلك ؟ الاحنف بن قيس - الحلم و الاناة و العطف - يُقاس بصبي لا عقل له ؟ قالوا:" نعم الدية سواء", قال:"القياس فاسد".

و كان من طلب العلم آيات في بعض العلماء. سعيد إبن جبير - كما هو في أثر أخرجه إبن أبي شيبة - كان مع ابن عباس رضي الله عنهما - يسمع الحديث يكتبه وسط الرّاحلة و إذا نزل نسخه. و لذلك العالم أتقى من الجاهل, كما يقول مسروق قال: "كفى بالمرء علما أن يخشى الله و كفى بالمرء جهلا أن يُعجب بعلمه" - مسروق التابعي الوادعي الهمداني اليمني وفاته سنة 62 هـ و قيل 63هـ أسلم قبل وفاة النّبي صلّى الله عليه و سلّم, و قد صلّى خلف أبي بكر و عثُمان و علي و سُمّي مسروق لأنّه سُرق في صغره, رآه عمر قال: "من أنت ؟", قال: "مسروق الأجدع", قال: "أجدع الشيطان, انت مسروق بن عبد الرحمان". يقول مسروق:" كفى بالمرء علما ان يخشى الله و كفى بالمرء جهلا أن يُعجب بعلمه", فالعالم بشرع الله أخشى و أعبد لله لانّه يعلم قلّة علم النّاس و قلّة زهدهم و تقواهم و دينهم لانّهم لم يطلبوا العلم, شُغلوا و ضحكوا عليهم في هذه الجامعات و المدارس, يجب ان نُصلح التعليم وُجوبا, و هذا العلم من استحى في طلبه لا يتعلّم, لا بدّ ان يكون جريئا و يسال, فإنما شفاء العيّ السّؤال, و العلم أصله جواب لسؤال "يسألونك" و القرآن ينزل و النّبي صلّى الله عليه و سلّم يُجيب.

في حديث رواه مسلم في صحيحه, قالت عائشة رضي الله عنها: "نعم النّساء نساء الأنصار, كان لا يمنعهن الحياء أن يتفقهن في الدّين" - و كما هو معلوم أن أمّ سليم أم أنس كانت تاتي النّبي صلّى الله عليه و سلّم و تسأل هل على المرأة المحتلمة من غسل.

جابر بن عبد الله بن حرام رضي الله عنهما خرج في طلب العلم - و هو من المكثرين روى اكثر من 1000 حديث و مع ذلك خرج من المدينة طلبا في حديث سمعه عن رجل. في حديث حسن أخرجه أحمد و الحاكم في المستدرك عن جابر بن عبد الله: "بلغني حديث عن رجل سمعه من النّبي صلّى الله عليه و سلّم فاشتريت بعيرا ثُمّ شددت عليه رحلي فقدمت عليه الشّام فإذا عبد الله بن انيس فقلت للبوّاب قل له جابر على الباب فخرج يطأ ثوبه فاعتنقني و اعتنقته فَقُلْتُ : حَدِيثًا بَلَغَنِي عَنْكَ أَنَّكَ سَمِعْتَهُ مِنْ رسول الله صلّى الله عليه و سلّم صلّى الله عليه و سلّم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْقِصَاصِ ، فَخَشَيْتُ أَنْ تَمُوتَ أو أَمُوتَ قَبْلَ أَنْ أَسْمَعَهُ ، فَقَالَ : سَمِعْتُ رسول الله صلّى الله عليه و سلّم صلّى الله عليه و سلّم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، يَقُولُ " : يَحْشُرُ اللَّهُ النّاس يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، أو قَالَ : الْعِبَادَ عُرَاةً ، غُرْلا ، بُهْمًا ، قَالَ : قُلْنَا : وَمَا " بُهْمًا " ؟ قَالَ : لَيْسَ مَعَهُمْ شَيْءٌ ، ثُمّ يُنَادِيهِمْ بِصَوْتٍ يَسْمَعُهُ مَنْ بَعُدَ ، كَمَا يَسْمَعُهُ مَنْ قَرُبَ : أنا الْمَلِكُ ، أنا الدَّيَّانُ ، لا يَنْبَغِي لأَحَدٍ مِنْ أهل النَّارِ ، أَنْ يَدْخُلَ النَّارَ وَلَهُ عِنْدَ أَحَدٍ مِنْ أهل الْجَنَّةِ حَقٌّ ، حتّى أَقُصَّهُ مِنْهُ ، وَلا يَنْبَغِي لأَحَدٍ مِنْ أهل الْجَنَّةِ أَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ ، وَلأَحَدٍ مِنْ أهل النَّارِ عِنْدَهُ حَقٌّ ، حتّى أَقُصَّهُ مِنْهُ حتّى اللَّطْمَةُ ، قُلْنَا : كَيْفَ وَإِنَّمَا نَأْتِي اللَّهَ عُرَاةً ، غُرْلا ، بُهْمًا ؟ قَالَ : بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ" ...يخرج ليطلب العلم شهرا كاملا من اجل حديث واحد من المدينة و هو الصحابي الجليل يخرج لطلب العلم إلى الشام ليقابل عبد الله بن أنيس - همم الصّحابة - و سمع الحديث ووعاه رضي الله عنهم و روى الحديث.

العلم الشرعي يُطلب بتقوى و لا يُكتم, لا يكتمه أحد عن أخيه المسلم بل يجب على العالم أن يُبلّغ و ليس معذورا, إن مُنع جهرا يُبلّغه سرّا و إلاّ ضاع الدّين و جهل النّاس, و غير معذور سيُسأل يوم القيامة. في حديث حسن أخرجه الطبراني في الأوسط عن أبي هريرة أنّ رسول الله صلّى الله عليه و سلّم قال: "مثل الذي يتعلم العلم ثُمّ لا يتحدث به كمثل الذي يكنز الكنز فلا ينفق منه" - و هذا الحديث حسن, في سنده عبد الله ابن لهيعة و قد ضعفوه لأنّ كتبه احترقت سنة 169هـ و توفّي سنة 174هـ, مصري ضعيف لأنّه اختلط لمّا احترقت كتبه, لكن الذي روى هذا الحديث عنه عبد الله ابن وهب من أبرز تلاميذ الإمام مالك, وُلد سنة 125هـ و توفّي سنة 179هـ بمصر, قد روى عنه عبد الله بن وهب روى عنه قبل اختلاطه, و من روى عن عبد الله إبن لهيعة بعد اختلاطه فالحديث ضعيف, و القعنبي كذلك إذا روى عن ابن لهيعة فالحديث صحيح و أقلّ مراتبه حسن.

قال عزّ و جلّ :" وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ " - العلم أفضل من كنز المال, و يُسأل الإنسان عن علمه ماذا عمل به, ففي حديث أخرجه أبي نعيم في الحلية و هو صحيح عن ابن عبّاس رضي الله عنهما عن النّبي صلّى الله عليه و سلّم قال :"صنفان من أمّتي إذا صلحا صلحت سائر الأمّة و إذا فسدتا فسدت سائر الأمّة السّلطان و العلماء", و متى اجتمع السلاطين و العلماء ؟. العلماء مبعَدون, و أعني الربانيون, يُرسلون إلى السجون, إذا تناصح العالم و السّلطان, إذا نصح العالم و سمع السّلطان صلُحت الأمّة. السّياسيون يبعدون و لا يسمعون للعلماء, ولذلك الأمّة الآن حالها لا يُرضي, و هذان الصنفان كلاهما يصنع التاريخ.

العلماء هم ورثة الأنبياء. إذا لم يبينوا للناس الحق الشرعي و إن طارت رؤوسهم فقد كتموا و ضلّلوا, لكنّ العلماء الآن موظّفون عند السلاطين, هم الذين يُطعمونهم, فماذا سيقولون ؟ قلّ الأمناء و كثر الأمراء و فسد الحال و تُفقّه لغير الدّين, و هم العلماء الذين يأكلون بالدّين.

في اثر صحيح رواه الحاكم و عبد الرزاق عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: "كيف بكم إذا لبستكم فتنه يربى فيها الصغار و يهرب بها الكبار و تتخذ سنة, و إذا غيرت يوما قيل هذا منكر, قيل: "و متى ذلك يا أبا عبد الرحمان", قال: "إذا قلت امنائكم و كثرت امرائكم و قلت فقهائكم و كثر قرائكم و تفقه لغير الدّين و التمس الدنيا بالآخرة". – فتنة لبستنا الآن, و الأثر موقوف في حكم المرفوع لانّه تكلّم في الغيبيات, و الغيب لا يتكلم فيه الا بوحي. "إذا لبستكم فتنة يربو فيها الصغير" - يكثر الكبار, العلماء, الدعاة الاشياخ, صوتهم ليس مسموع. الشباب مُتحمّس يريد أن ينصر الدّين و يتجاوز المراحل, و قد يسئ فيقع في الشر من حيث يريد الخير لأنّه لا يحيط بالنّصوص. الأزمات و الملمّات التي تلمّ الآن بالأمّة لا يحلّها الشباب المُتحمّس, و هم أبنائنا, إنّما تُعاد و ترجع المسائل إلى العلماء و الاشياخ الربانيين. قلّ الأمناء على الدّين, العُلماء و السّلاطين يحمون المقدسات, ينصرون الدّين لا... ساكتون, ثُمّ قال: "قلّت أُمنائكم و كثرت أمرائكم" - كم من حزب له أمير, كل فرقة له أمير, و هذا على مستوى بلد صغير, فكيف بنا إذا أحصينا أمراء الأمّة الإسلامية كلّها, لا تكاد تحصيهم. "و قلّت فقهائكم" - الذين يفقهون النّصوص, "و كثُرت قُرّائكم" - النّاس كلّهم يقرى و يتفقه لغير الدّين, يدرس كم سنة يتخرج ماذا ؟, أستاذ تربية, واعظ مرشد, امام مفتي, و التمست الدنيا بعمل الآخرة.

و إذا قلنا انك ستُسأل عن علمك ما عملت به, فيا من لم تعلَم أيضا لست معذورا, لا بُدّ أن تعلم بالضرورة علم الدّين لتسلم و ربما تغنم أيضا, إذا كنت صادقا مُخلصا متبعا للنبي صلى الله عليه و سلّم. يقول أبو الدرداء رضي الله عنه في اثر حسن أخرجه أحمد و الطبراني في المعجم الكبير: "إنّ أخوف ما أخاف إذا وقفت على الحساب فيُقال لي: "لقد علمت فما عملت فيما علمت ؟". هذا العلم الشرعي ماهو ؟ الأصل فيه: قال الله قال محمّد صلّى الله عليه و سلّم, آثار عن النّبي صلّى الله عليه و سلّم, تروي حديثا عن النّبي صلّى الله عليه و سلّم فأنت عالم بهذا الحديث, لأنّ العلم منقول, الاحاديث عن النّبي صلّى الله عليه و سلّم هي العلم الذي ورّثه النّبي صلّى الله عليه و سلّم أصحابه و نقله أصحابه الينا. يقول الأوزاعي رحمه الله: "العلم ما جاء به أصحاب محمّد صلّى الله عليه و سلّم و ما لم يجري أحد منهم فليس بعلم", و الأوزاعي هو عبد الرّحمان بن عمر الأوزاعي وُلد سنة 88هـ وفاته سنة 157هـ فقيه و محدث الشام, دعاه يوما عبد الله بن علي إبن اخ عبد الله السفاح, بعد ما انتهى من قتل الامويين و سيفه يقطر دما, فقال:" دخلت أرتعد أنتظر متى يكون رأسي بين قدمي, فقال لي: "هل دم بني امية علي حرام ؟", فقلت: "دمهم عليك حرام", قال: "كيف ؟", قلت:" الحديث: لا يحل دم امرئ مسلم إلاّ بإحدى ثلاث النفس بالنفس و الثيب الزاني و التارك لدينه المفارق للجماعة", فقال: "سألني ثانية : "أموالهم على حرام ؟", فقلت: "ان كانت عليهم حلالا فهي عليك حرام, و ان كانت عليهم حرام فهي عليك أحرم", قال: "أليست الخلافة وصية لعلي ؟", قلت: "إن كانت وصية فكيف يقبل علي بمن يتقدمه في الخلافة ؟, و كيف يقبل بالحكمين بين معاوية و هو ؟", فسكت فأخرجني, فخرجت فذهبت فإذا فارس خلفي بعثه ليقتلني, فإذا به يلقي كيسا من المال قال: "فقمت بعد صلاتي و أخذته و أنفقته ووزّعته قبل ان اصل بيتي" - لم يقبل منه درهما - يقول سفيان بن عيينه المتوفى سنة 198 هـ :"أوتيت فهما في القرآن, فلمّا اخذت مالا من أبي جعفر المنصور حُرمت ذلك"... يا أيها الموظف تريد العلم ؟.

العلم كما يقول سفيان بن عيينة:"أول العلم الاستماع ثُمّ الفهم ثُمّ الحفظ ثُمّ العمل ثُمّ النشر". إذا لم تكن عاملا لا ينتفع بك النّاس, أول ما ينفعك انت العلم, الفهم - افهم ما يقول و اسأل -, ثُمّ احفظ حفظا ثُمّ اعمل. يقول وكيع بن جراح - محدّثٌ توفّي سنة 179هـ - يقول: "كنّا نستعين على حفظ الحديث بالعمل به و كنا نستعينُ في طلبه بالصّوم". لا بُدّ أن تعمل بما علمت, و إذا لم تعمل فلن تنتفع أنت و لا غيرك, و لا ينتفع بك النّاس. علم الحديث هو العلم. يقول أحمد بن حنبل بعد أن سألوه:"هل لله في الأرض أبدال ؟", قال: "إن يكن له ابدال فهم أهل الحديث, و إلاّ لا أعرف إن لم يكن هم الأبدال". هذا أثر لكن الإمام أحمد روى حديثين ضعيفين منقطعين في حديث الأبدال أحدهما عن علي و الثاني عن عبادة بن الصامت كلاهما ضعيف.

في حديث حسن أخرجه إبن ماجه عن أبي عتبة الخولاني قال:"سمعت رسول الله صلّى الله عليه و سلّم يقول: "لا يزال الله يغرس في هذا الدّين غرسا يستعمله في طاعته", فسئل أحمد عن هذا الحديث, قيل: "من الغرس ؟", قال: "أهل الحديث" - هم العلم الثابت الذي لا يتخلخل, هم الدّليل, و من كتب الحديث قويت حجّته كما قال الإمام الشافعي رحمه الله – وُلد سنة 150هـ في سنة وفاة أبي حنيفة و توفّي سنة 204هـ - يقول:"من قرا القرآن عظمت قيمته, و من تفقه نبل قدره, و من كتب الحديث قويت حجته' و من تعلم اللغة رقّ طبعه, و من تعلّم الحساب جزُل رأيه, و من لم يصن نفسه لم ينفعه علمه". العلم يبدأ بالقرآن, لا يأتي العلم قبل القرآن, و السنّة مُبيّنة للقرآن, قال عزّ و جلّ " وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ" كيف نُبين ؟ ...

في السنّة. "من قرأ القرآن عظمت قيمته و من تفقه نبل قدره و من كتب الحديث قويت حجته" - لا حُجّة مع الحديث, الدّليل من السنّة التي بيّنت ما جاء في القرآن تفصيلا و تقييدا و تخصيصا, أيضا هذه هي السنّة, و إذا كنا نريد العلم حقا فلنعد إلى كتب الرجال و العلماء, كتب الحديث التي نقلت عن الصّحابة رضي الله عنهم.

ذُكر الصّحابة عند الحسن البصري - وُلد في السّنتين الأخيرتين من خلافة عمر توفّي سنة 110هـ في شهر رجب - قال الحسن البصري التابعي الجليل لما ذكر الصّحابة: "هم أبرّ الأمّة قلوبا و أعمقهم علما و أقلّهم تكلّفا, قوم اختارهم الله عزّ و جلّ لصحبة نبيه صلّى الله عليه و سلّم فتشبّهوا بأخلاقهم و طرائقهم فوربّ الكعبة انّهم لعلى هدى مستقيم". كلّ دعوات الجهالة و تفريق الأمّة و الدّماء جاءت بعدهم, الخلاف مع أخيك المسلم يخالفُك في الفرعيات ليس عدوًّا لك, لا أتكلّم في الأصول, فذلك شيئ آخر, و الصّحابة كانوا مهما اختلفوا تعانقوا, يعلمون أنّ بعد التوحيد وحدة الأمّة. الآن عمل الأعداء على التفريق بين الأمّة بتقسيم الأمّة إلى بلدان, ثُمّ ها نحن نعمل كمسلمين بيننا على تفريق بعضنا البعض, هذا حرام بيننا لأنّ من تحزّب فرّق المسلمين شاء أم أبى, خالف قول الله شاء أم أبى, هذه التّسميات مُنفّرة لبعضنا البعض مفرّقة...الأصل الإسلام, لا فائدة في هذه التّسميات, ينجح الشيطان في التفريق بيننا, و يستجيبُ أصحابُ الأهواء الذين يريدون الإمارة و الظّهور و البروز على حساب الجميع, و هذا خطر على الأمّة يجب أن يُعالَج الآن قبل فوات الأوان, و الأمّة مقبلة على ملاحم شئنا أم أبينا, و الأحاديث ذكرناها في دروس مضت.

فضل العلم و أهله

(ألقاها بجامع الزيتونة في شعبان 1432)

إنّ كل شيئ إذا زاد و كثُر ينقُص إلاّ العلم, إذا ازداد يغلى و صاحبه يعلَى. قال الله عزّ و جلّ "يَرفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ " - الذين آمنوا و أوتوا العلم أرفع درجات من الذين آمنوا و لم يؤتوا العلم, و أفضل النّاس أخشاهم لله, و أخشاهم لله أعلمهم بالله, قال عزّ و جلّ "إنما يخشى الله من عباده العلماءُ" - العلماء هُم الذين يخشون الله فمن هُم هؤلاء العلماء الذين امتازوا و تميّزوا و فُضّلوا على باقي النّاس بعلمهم ؟ و ما هو هذا العلم ؟.

روى إبن ماجه بسند صحيح عن أنس قال: قال رسول الله صلّى الله عليه و سلّم: "طلب العلم فريضة على كلّ مسلم"- قوله فريضة أي التوحيد و الواجبات و المنهيات... هذا التعريف مُختصر. و قد أخرج المروزي بسند صحيح عن إسحاق بن راهويه قال: "يلزمه طلب علمُ ما يحتاج اليه لوضوئه و صلاته و زكاته و كذلك الحجّ, و ما وجب عليه في ذلك لم يستأذن أبويه في الخُروج إليه و ما كان منه فضيلة لم يخرج إلى طلبه إلا بعد أن يستأذن والديه" - و قوله فريضة أي المعلوم من الدّين بالضرورة, الذي لا يُعذر به جاهل بجهله. يقول سفيان بن عيينه:"سمعت جعفر بن محمّد يقول: "وجدنا علم النّاس كلّه في أربعة: أولها أن تعرف ربك, و الثاني ان تعرف ما صنع بك, و الثالث ان تعرف ما أراد منك, و الرّابع ان تعرف ما تخرج من دينك".

روى مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلّى الله عليه و سلّم: "من سلك طريقا يلتمس به علما سهّل الله له به طريقا إلى الجنة و من بطأ به عمله لم يُسرع به نسبه" – الذي يخرج في طلب العلم في سبيل الله.

و روى الشيخان في صحيحيهما من حديث عبد الله ابن عمر قال: قال رسول الله صلّى الله عليه و سلّم: "لا حسد إلاّ في اثنتين, رجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء اللّيل و آناء النّهار و رجل آتاه الله مالا فَهُوَ يُنْفِقُهُ آنَاءَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ". - ليس الحسد المعلوم الذي يأكل الحسنات, إنّما المُراد به الغبطة, أن تغبطه في قرائّه يقوم به آناء الليل و آناء النهار, يتلوه و يعلّمه و يحلّ حلاله و يحرّم حرامه و يتخلّق بالقرآن.

و روى الشيخان من حديث ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلّى الله عليه و سلّم: "لا حسد إلاّ في اثنتين, رجل آتاه الله المال فهو يسلّطه على هلكته في الحقّ, و رجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها و يعلّمها" - ينصر به دين الله, ينفقه في سبيل الله, في سبيل الدّعوة في سبيل الجهاد يصدّ به أعداء الله, و آتاه الله الحكمة قال تعالى: "و مَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا " - و الحكمة هي السنّة "وأنزل الله عليك الكتاب و الحكمة", و الحكمة أيضا كل قول ينفع النّاس في دينهم و دنياهم و لا يخالف الشّرع فهو حكمة.

و من لم يكن عالما أو متعلّما فماذا يكون ؟

فقد روى الترمذي و ابن ماجه بسند حسن عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: "سمعت رسول الله صلّى الله عليه و سلّم يقول: "ألا إن الدنيا ملعونة و ملعون ما فيها الا ذكر الله و ما والاه و عالم أو متعلّم"- إن لم تكن من هؤلاء فماذا ستكون ؟

و إنّ طالب العلم تحفّ به الملائكة و تستغفر له الحيتان في البحر و النّمل في جحورها و كلّ أهل السّماوات و الأرض يستغفرون و يصلّون على طالب العلم.

فقد روى الحاكم و الطبراني بسند صحيح عن زرّ بن حبيش قال: جاء رجل إلى رسول الله صلّى الله عليه و سلّم يُقال له صفوان بن عسّال إلى رسول الله صلّى الله عليه و سلّم و هو متّكئ على بُرد له أحمر فقال: "إنّي جئت أطلب العلم", فقال: "مَرْحَبًا بِطالبِ الْعِلْمِ ، طَالِبُ الْعِلْمِ لَتَحُفُّهُ الْمَلائِكَةُ وَتُظِلُّهُ بِأَجْنِحَتِهَا ، ثُمَّ يَرْكَبُ بَعْضُهُ بَعْضًا حتى يَبْلُغُوا السَّمَاءَ الدُّنْيَا مِنْ حُبِّهِمْ لِمَا يَطْلُبُ ، فَمَا جِئْتَ تَطْلُبُ ؟"...الحديث في مسح الخفين – لتحفّ به الملائكة فيركب بعضها بعضا, زحاما و فرحا بهذا و رضا بهذا الطالب, طالب العلم الشرعي.

و عن جميل بن قيس أنّ رجلا جاء من أهل المدينة إلى أبي الدّرداء و هو بدمشق فسأله عن حديث فقال أبو الدرداء: "ما جاءت بك حاجة و لاجئت في طلب التجارة و لا جئت إلاّ في طلب الحديث ؟", قال:"بلى", قال:" أبشر, فإنّي سمعت رسول الله صلّى الله عليه و سلّم يقول: "مَا مِنْ عَبْدٍ يَخْرُجِ يَطْلُبُ عِلْمًا إلا وَضَعَتْ لَهُ الْمَلائِكَةُ أَجْنِحَتَهَا ، وَسُلِكَ بِهِ طَرِيقٌ إلى الْجَنَّةِ ، وَإنّه لَيَسْتَغْفِرُ لِلْعَالِمِ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ حتّى الْحِيتَانُ فِي الْبَحْرِ ، وَإِنَّ فَضْلَ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ ، إِنَّ الْعُلَمَاءَ هُمْ وَرَثَةُ الأَنْبِيَاءِ ، وَإِنَّ الأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلا دِرْهَمًا ، وَلَكِنَّهُمْ وَرَّثُوا الْعِلْمَ فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ". الحديث رواه أحمد بسند حسن – الله عزّ و جلّ يستغفر لطالب العلم, الملائكة, الحيتان, النّمل, الدّواب, البهائم الكلّ يستغفر لطالب العلم. و روى الترمذي و الطبراني بسند صحيح عن أبي أمامة قال: قال رسول الله صلّى الله عليه و سلّم: "إنّ الله و ملائكته و أهل السماوات و الأرض حتّى النّملة في جحرها و حتّى الحوت في البحر ليصلّون على معلّم النّاس الخير" - و هم العلماء الربانيون العاملون يعلّمون النّاس الخير.

بل إنّ طالب العلم مرزوق من تكفل به

فقد روى الترمذي و الحافظ بسند صحيح عن أنس قال: "إنّ أخوين كانا على عهد رسول الله صلّى الله عليه و سلّم فكان أحدهما يحفظ حديث رسول الله صلّى الله عليه و سلّم و مجلسه و كان الآخر يُقبل على صنعته فقال الآخر:" يا رسول الله إنّ أخي لا يعتني بشي, فقال له رسول الله صلّى الله عليه و سلّم: "فلعلّك تُرزق به", و هناك فرق بين طالب العلم و بين العابد الذي يجلس للعبادة فالذي يكفله أعبد منه, الذي يكفل العابد أعبد من العابد عكس طالب العلم, فإنّه مرزوق به من تكفّل به, و فضل العلم خير من فضل العبادة - و نعني بالعبادة التطوع بالنوافل. روى الطبراني و البزّار بسند حسن عن حذيفة قال: قال لي رسول الله صلّى الله عليه و سلّم: "فضل العلم خير من فضل العبادة و خير دينكم الورع". أخرج يعقوب الفسوي بسند حسن عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: "اغد عالما أو متعلما و لا تغدو إمّعة بين ذلك" قال أبو يوسف: قال أهل العلم:"الأمّعة أهل الرّأي الذين يُعملون عقولهم خارج النّصين" - و ما أكثرهم.

و أخرج أيضا يعقوب الفسوي بسند صحيح عن عمر بن عبد العزيز - الخليفة العادل - قال: "إن استطعت فكن عالما و إن لم تستطع فكن متعلّما و إن لم تستطع فأحبّهم و إن لم تستطع فلا تُبغضهم" – فأحبّهم ان لم تكن طالب علم أو عالما أو مُتعلما أحبّ العلماء و لا تبغضهم.

يقول الإمام الشافعي رحمه الله:

أُحبّ الصّالحين و لست منهم لعلّي أنال بهم شفاعة

و أكره من تجارتهم المعاصي و لو كنا سواء في البضاعة

في هذين البيتين أدب و تقوى و خلق من الإمام الشافعي و تواضع. يُحبّ الصالحين و من أصلح من العلماء ؟

و أخرج عبد الرزاق في مصنفه بسند صحيح عن الزهري قال :"خير ما عُبد به الله الفقه" – من يجلس يتفقه يتعلم أعبد من غيره, لم يُعبد الله بمثل الفقه.

و أخرج إبن عبد البرّ عن عبد الله بن وهب قال كنت عند الإمام مالك فجاءت صلاة الظهر و العصر و كنت أقرأ عليه و أنظر في العلم بين يديه, فجمعت كتبي و قمت لأركع فقال لي مالك: "ما هذا ؟", قلت: "أقوم لأصلّي", قال: "إنّ هذا لعجب, فمالذي قُمت اليه بأفضل من الذي كنت فيه, إذا صحت النية فيه" - طلب العلم و الفقه.

و طلب العلم ليس للصغير فقط بل للكبير و الصغير على السواء

و إن كان الصّغير أثبت من الكبير, و لكن ليست قاعدة فإن الإسلام جاء و الصّحابة كبار فحفظوا القرآن و عملوا و جاهدوا و قادوا و سادوا و رادوا الأمم - صدق و إخلاص -, و إن كان الصغير أثبت كما اخرج الخطيب البغدادي - حافظ المشرق المتوفى سنة 463هـ -عن الحسن البصري قال: "طلب العلم في الصّغر كالنقش على الحجر" - و هذا ليست قاعدة فإني رايت في البلد الحرام من يطلب العلم من إخواننا الاعاجم, من يطلب العلم و بياض لحيته اكثر من سوادها.

قال أبي إبن الصلت:

ان الغلام يطيع من يأدبهُ و لا يطيعك التأديب و الرأس أشيبُ

...إلى حدّ ما"

الشباب أطيع و خير مثال هذه الوجوه النيّرة المشرّقة أغلبهم شباب و يقول صابر البربري:

قد ينفع الأدب الأحداث في مهد و لا ينفع عند الكبر الأدب

إن الغصون إذا قومتها اعتدلت و لن يلين إذا قومته الخشب...

الكبير يستعصي دائما لكن الشباب أطيع.

و في طلب العلم قصص

هشام بن عمّار

فقد خرج هشام بن عمّار – توفّي سنة 245هـ, و هو تلميذ الإمام مالك و هو شيخ الإمام البخاري فهو تلميذ إمام و شيخ إمام – يقول: "خرجت صغيرا أطلب العلم فلقيت الإمام مالك, قلت له: "حدثني", فقال:"اقرأ", قلت: "حدثني", قال: "اقرأ" - و كان من أسلوب مالك انّه لا يحدث لكن ينصت لطالب العلم و يُصحّحه -, فقال لغلامه:" قم فاجلده خمس عشرة صوتا", فجلده فبكى هشام بن عمّار و قال: "لم تجلدني بغير جرم و الله لا أستحلك أبدا", فقال له الإمام مالك:" و لم ؟", فقال له:"جلدتني بغير حق", فقال له: "كيف أستحل ذلك", قال: "أن تحدثني بكلّ سوط حديثا", فحدثه الإمام مالك ثُمّ قال له:"قم فاجلدني و حدثني بكل صوت حديثا"...لا إله إلا الله ما أعزّ طلب العلم بهذه الطريقة.

البقي بن مخلد

و خرج البقي بن مخلد بن يزيد الأندلسي في رحلته إلى المشرق - و هو متوفى سنة 276هـ - قال: "فجئت بغداد فوجدت النّاس في المسجد حول يحيى بن معين - المحدّث قاموس المحدثين - فسالت عن هشام بن عمّار فقال: "ثقة", و سألته عن الإمام أحمد - و كان في أيام المحنة و قد بقي الإمام أحمد 10سنوات في بيته لم يشهد جمعة و لا جماعة لم يخرج – قال: "فدلوني على بيته", فأتيته لبيته قال: "ماحاجتك ؟", قال:"رجل من الاندلس", قال:"ماحاجتك ؟", قال: "العلم", قال: "انظر إلى الشرط", فقال له: "ايتني في صورة متسوّل", فقلت:"جئت من الغد حتّى حفظت ثلاثُمّائة حديثا" - ما أعز طلب العلم بهذه الطريقة -
قال: "ثُمّ خرج الإمام أحمد بعد المحنة إلى المسجد فأتيته و النّاس عليه زحام", ثُمّ رجع بقي إلى الأندلس انتفع به خلق كثير.
يقول إبن حزم - صاحب المذهب الخامس الظاهري متوفى سنة 456هـ - يقول:"ليس هناك من صنّف أفضل من بقي إبن مخلد في مسنده – مصنّف و مسند في آن واحد - فقد أخذ عن أكثر من ألف و أربعمائة صحابي ثُمّ رتبها على المسند ثُمّ صنفها على أبواب الفقه, كلّ صحابي على باب من أبواب الفقه, فهو أوسع من مسند الإمام أحمد و مصنف الإمام شيبة. يقول الذّهبي – متوفى سنة 748هـ يقول:"و عندي من مسنده مجلدان - لا أثر لهذا المسند - و يقول إبن حزم:"و ليس هناك أفضل من تفسيره أبدا" - حتّى تفسير إبن جرير الطبري جامع البيان - و الطبري متوفّى سنة 310هـ -و فسر قبله, بقي إبن مخلد يقول إبن حزم"تفسيره افضل من تفسير الطبري" - الذي هو أم التفاسير. كان بقي بن مخلد عالما عاملا مجاهدا بل جاهد و قاتل في أكثر من 70موضعا رحمة الله عليه.

عبد الله إبن فرّوخ

من بلاد القيروان خرج من يطلب العلم عبد الله إبن فرّوخ الخراساني القيرواني - مولود سنة 115 هـ متقدم وفاته سنة 176هـ خرج و عبد الله بن غانم, يقول عبد الله بن فرّوخ:"وهمّي و أملي أن ألتقي الأعمش سليمان بن مهران - المحدّث متوفّى سنة 148م

الكوفي - فإذا هو اعتزل في بيته فخرجت الجارية فقالت مالك أمام البيت ؟قالت:"أتعرف إبن فروخ", قال:"نعم انا عبد الله" - و كانت رضيعة له في القيروان في العراق فاشتراها الأعمش فدخلت إلى الأعمش فذكرت له ذلك فقرّبه و سكنت بيتا قبالة بيته وكنت آخذ الحديث عنه وحدي ثُمّ ذهب إلى أبي حنيفة - متوفّى 150ه - قال :" أنا في بيته فسقطت علي آجرة, فأخذت مقابل الشجة ثلاثُمّائة حديث"...هكذا كانوا يطلبون العلم , ثُمّ أخذ عن أبي حنيفة و دوّنها عشرة آلاف مسألة فقهية ثُمّ عاد للقيروان و انتفع به خلق كثير. كان له دكّان تجارة إذا أُعطي الجند أعطياتهم و رواتبهم في ذلك اليوم أغلق دكانّه. يقول الإمام سحنون - وُلد سنة 160هـ توفّي سنة 240هـ صاحب المدونة – يقول:"اختلف عبد الله بن غانم و إبن فروخ في مسألة فسال إبن غانم إبن فروخ: إذا كان الأمير على غير عدل و وولاّك تقبل ؟ قال:"لا", قال إبن غانم:"يجوز", فارسل في المسألة إلى مالك فقال:"أصاب الفارسي و اخطأ العربي", الفارسي عبد الله إبن فروخ و أخطأ عبد الله بن غانم قاضي القيروان –لا إله إلا الله. يقول الإمام مالك رحمه الله:"إبن فروخ فقيه افريقية", و ذهب إبن فروخ في آخر حياته إلى الحج و جلس مع الإمام مالك فلما جلس حوله سأله مرّة مالك فلمّا أجاب قال:"هو كما قال هو كما قال", و عاد في طريقه إلى القيروان وافته المنية في مصر, و لمّا قدم مصر فرح به المصريون لانّه جاء في سنة توفّي الليث بن سعد توفّي في مصر إبن فروخ لانّه جاء بعد وفاة اللّيث بن سعد و إبن لهيعة فوافته المنية و دفن قربهما يقول عبد الله إبن وهب:"عهدت على نفسي لا ازور المقبرة إلاّ و زرت إبن فروخ و دعوت له", هكذا كان يطلب أولئك العلم.

و طلب العلم بأدب و بحرص

فقد أخرج الدّارمي و إبن أبي شيبة بسند صحيح عن سعيد إبن جبير يقول: "كنت أسير مع إبن عباس في طريق مكة ليلا فكان يحدثني فأكتب الحديث في واسطة الرحل - على الناقة - يحدثني ليلا يكتب الحديث حتّى أصبح, و ذكر عبد الرزاق في مصنفه بسند صحيح عن صالح بن كيسان قال:"اجتمعت أنا و الزهري و نحن نطلب العلم و كنا نكتب السنن" – ماجاء عن النّبي صلّى الله عليه و سلّم - فقال الزهري: "نكتب ما جاء عن الصّحابة فانّه سنة", فقلت: "ليس بسنة فلا نكتبه", فكتب و لم أكتب, فكانوا يكتبون. يقول سحنون:" العلم صيد و الكتابة قيد" - فلا بد أن نقيد العلم.

و العلم أمانة عن الثقات

فقد كان الصّحابة يتحرّون أن يروون الحديث عن النّبي صلّى الله عليه و سلّم خوفا من الوقوع في خطأ فقد روى الدّارمي بسند صحيح عن ربيع بن يزيد قال: "أن ابا الدرداء كان يحدثهم حديثا عن النّبي صلّى الله عليه و سلّم ثُمّ يقول إذا فرغ:"اللهمّ إن لم يكن هذا فكشكله" و روى إبن ماجه بسند صحيح عن محمّد إبن سيرين يقول كان أنس إبن مالك يحدثنا عن رسول الله صلّى الله عليه و سلّم فإذا فرغ قال: "أو كما قال رسول الله صلّى الله عليه و سلّم ".

و أخرج الخطيب أيضا عن مسروق عن عبد الله كان يحدثنا يوما فقال سمعت رسول الله صلّى الله عليه و سلّم, يقول: "ثُمّ أرعد", قال: "أو نحو هذا أو شبه هذا" - أرعد فرقا خوفا خشية... أمانة... العلم أمانة... علم الدّين أمانة, فكانوا على قدر من الخلق و الآداب و الأمانة حفظوه فحفظهم الله.

و للعالم آداب و للمتعلم آداب يجب التحلّي بها

يقول علي إبن أبي طالب: "تعلّموا العلم فإذا علمتم فاكظموا عليه و لا تشوبوه بكذب و لا بلعب فتمُجّه القلوب".

"و لا تشوبوه بكذب "– أي لا تخلطوه.

يقول الإمام الشافعي رحمه الله المتوفى سنة 204 :

سألت وكيع سوء حفظي فارشدني إلى ترك المعاصي
و قال اعلم بأن العلم نور و نور الله لا يهداه عاصي

وكيع بن جراح شيخ الإمام الشافعي متوفى سنة 179 هـ

و أخرج الفسوي و إبن أبي شيبة بسند صحيح قال الشعبي:"صلّى زيد إبن ثابت على جنازة ثُمّ قرّبت له بغلة ليركبها فأتى إبن عباس فاخذ بركابه فقال زيد" خلي عنك يا إبن عم رسول الله", فقال إبن عباس:"هكذا نفعل بالعلماء و الكبراء", ثُمّ ان زيد قبّل يد إبن عباس" - عالم و متعلم قبّل يده و إبن عباس أخذ بركاب شيخه زيد إبن ثابت رضي الله عنهما, هكذا كان الأدب و الخلق بين العلماء و المتعلمين.

و لا بد على العالم أن يبلّغ من تلقاء نفسه

فهي رسالة, روى البخاري في صحيحه عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن النّبي صلّى الله عليه و سلّم قال: "بلّغوا عني و لو آية و حدثوا عن بني إسرائيل و لا حرج و من كذب علي متعمّدا فليتبوّأ مقعده من النّار" ....و الذي لا يُبلّغ العلم يخشى على نفسه من العذاب فهو كاتم للعلم, فقد روى الطبراني بسند حسن عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: "قال رسول الله صلّى الله عليه و سلّم: "حدّثوا عن بني إسرائيل و لا حرج و من كذب عني متعمدا فليتبوأ مقعده من النار".

فقد روى الطبراني بسند حسن عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلّى الله عليه و سلّم: "مثل الذي يتعلم العلم ثُمّ لا يتحدث به كمثل الذي يكنز الذهب و لا ينفق منه", قال عزّ و جلّ: "و الذين يكنزون الذهب و الفضة و لا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم", كذلك الذي يكنز العلم و لا يتحدّث به – لا بُدّ أن يُحدّث.

و أخرج الدّارمي و إبن أبي شيبة بسند صحيح عن شفيق قال: "خطبنا إبن عباس في الموسم فكان أمير الموسم يفسّر البقرة, فما رأيت و لا سمعت كلام رجل مثله و يقول: "لو سمعته فارس و الرّوم و التّرك لأسلمت" - ترجمان القرآن و حبر الأمّة إبن عباس رضي الله عنهما - كانوا يحدّثون النّاس و يُبلّغون العلم عن رسول الله صلّى الله عليه و سلّم فهو أمانة.

و الذي يكتم العلم يأتي يوم القيامة ملجما بلجام من نار

كما روى ذلك أبو داود و التّرمذي و ابن ماجه بسند صحيح عن أبي امامة قال: قال رسول الله صلّى الله عليه و سلّم:"من سُئل علمًا فكتمه يأتي يوم القيامة بلجام من نار".

و في الصّحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال:"إنّ النّاس يقولون أكثر أبو هريرة, و لولا آيتين في كتاب الله ما حدثتكم حديثا ثُمّ يتلو قوله تعالى "إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات و الهدى..." إنّ أخواننا من المهاجرين كان يشغلهم الصفق في الأسواق, و إنّ إخواننا من الأنصار كان يشغلهم الشغل في أموالهم, و إنّ أبا هريرة كان يلزم رسول الله صلّى الله عليه و سلّم بشبع بطنه و يحضر ما لا تحضرون و يحفظ ما لا تحفظون - أبو هريرة ما صاحب النّبي صلّى الله عليه و سلّم إلاّ أقلّ من أربع سنوات, أسلم يوم فتح خيبر في السنّة السّابعة للهجرة و مع ذلك كان أكثر الصّحابة رواية, فقد روى أكثر من خمسة آلاف حديث, و كان مجاهدا أيضا فقد جاهد بعد العراق حتّى لا يُقال محدّث فقط, قال "يلعنهم اللاّعنون", قال عطاء:" تلعنهم كلّ دابة و الجن و الإنس", و قال مجاهد: "إذا أجدبت الأرض قالت البهائم ان هذا من أجل عصاة إبن آدم"... كانوا يستغفرون لهم عند طلب العلم كما ذكرنا في أول الدرس و يلعنونهم لانّهم كتموا العلم.... الآن يلعنونهم جميعا لانّهم كتموا العلم.

و من أتى السلاطين يُفتتن من العلماء مهما كان علمه

فقد روى أبو داود و الترمذي و النسائي و أحمد بسند صحيح عن إبن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلّى الله عليه و سلّم: "من سكن البادية جفا و من اتبع الصيد غفل و من أتى السّلطان افتتن".

يقول قتادة - و هو تلميذ أنس - لمّا ذكر ذلك إبن عبد البر في الأثر قال:" العلماء كالملح إذا فسد الشيئ صلُح بالملح و إذا فسد الملح لا يصلحه شي". إذا فسد العلماء...الله الله في العلم.

و قد نهى النّبي صلّى الله عليه و سلّم أن يُتعلّم لغير الله

فقد أخرج إبن ماجه و إبن حبان و الحاكم بسند صحيح عن جابر قال: قال رسول الله صلّى الله عليه و سلّم: "لا تتعلّموا العلم لتباهوا به العلماء و لا لتماروا به السفهاء و لا تتخيّروا به المجالس, فمن فعل ذلك فالنار النار" - منابر تسمعونها و ترونها فالنار النار لا تتعلموا العلم لتباهوا به العلماء و لا لتماروا به السفهاء و لا تتخيّروا به المجالس. سَألَ عمر في أثر أخرجه الدّارمي بسند صحيح عبد اللهَ بن سلام رضي الله عنه قال :"من أرباب العلم" ؟ قال عبد الله بن سلاّم:"

الذين يعملون بما يعلمون", قال:"فما ينفي العلم من صدور الرجال ؟" قال: "الطّمع" - في الجاه, في الظهور, في الوظيفة, لن يصلح حال العلماء إلاّ لمّا ترى العالم يكتسب من قوت يمينه, الدّين و العلم ليس وظيفة انّه أمانة.

و أخرج الدارمي أيضا بسند صحيح عن أبي إبن كعب قال: "تعلّموا العلم و اعملوا به و لا تتعلموه لتتجملوا به فانّه يوشك أن يأتي زمان يُتجمل فيه بالعلم كما يتجمل الرّجل بالثوب أو كما يتجمل الرّجل بثوبه" - نعيشه هذا...أبّهات ترونها.

يقول عبد الله إبن المبارك - المحدّث المُجاهد وُلد سنة 118هـ توفّي سنة 181هـ يقول:

يَا طَالِبَ الْعِلْمِ بَادِرِ الْوَرَعَا
وَهَاجِرِ النَّوْمَ وَاهْجُرِ الشَّبَعَا
يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمْ عُشْبٌ يَحْصُدُهُ الْمَوْتُ كُلَّمَا طَلَعَا
لا يَحْصُدُ الْمَرْءُ عِنْدَ فَاقَتِهِ إِلا الَّذِي فِي حَيَاتِهِ زَرَعَا

عبد الله بن المبارك أوّل ما بدأ يطلب العلم سمع بالرّبيع الخراساني, فإذا هو في السجن فتحيل إبن المبارك ليدخل السجن, فأخذ عنه أربعين حديثا يقول معاتبا الفضيل بن عياض, العالم المتزهد:

يا عابد الحرمين لو ابصرتنا لعلمت انك في العبادة تلعب
من كان يخضب خده بدموعه فنحورنا بدمائنا تتخضّب

و إنّ هذا الزمان هو زمان كتمان العلم و ذهاب العلم و قبض العلم و رفع العلم.

روى الشيخان في صحيحيهما عن أبي هريرة عن النّبي صلّى الله عليه و سلّم قال: "يُقبض العلم و يظهر الجهل و الفتن و يكثر الهرج قيل: "و مالهرج", فأشار بيده فحرّفها كانّه يريد القتل" يقبض العلم...ما أكثر الجامعات و المدارس و المعاهد و ما أكثر الجهل, و الجهل و الفتنة مقترنان و الهرج - القتل القتل في المسلمين بعضهم لبعض أساسه الجهل.

روى الشيخان في صحيحيهما عن أنس قال: قال رسول الله صلّى الله عليه و سلّم: "من أشراط السّاعة أن يُرفع العلم و يبثّ الجهل و يشرب الخمر و يظهر الزنا"-يبث بثا في الفضايات و الانترنات و الصحف و المجلات يُنشر نشرا- و يشرب الخمر- يُحمى بقوانين و يظهر الزنا على قارعة الطريق, حسبنا الله و نعم الوكيل, و الله لنسألنّ جميعا, من يأمر بالمعروف و ينهى عن المنكر ؟ سكوت سكوت...خوف خوف, قال عزّ و جلّ "و أنجينا الذين ينهون عن السوء و أخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس بما كانوا يفسقون", فهذا أوان رفع العلم.

روى الشيخان في صحيحيها عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: سمعت رسول الله صلّى الله عليه و سلّم يقول: "إن الله لا يقبض العلم انتزاعا ينتزعه من العباد و لكن يقبض العلم بقبض العلماء اتخذ النّاس رؤوسا جهّالا فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلّوا و أضلّوا"

– جهالا, بالولاءات و ليست بالكفاءات, خوفا من السّلاطين لا يقولون الحق, طمعا في الجاه, في الظهور, فسُألوا فأفتوا بغير علم, من الذي بوأهم هذه المكانة ؟ كفائتهم أم ولائهم ؟.

إن هذا لهو العلم الحق لكن هذا العلم الحق يحتاج إلى قوة تحميه

فإنا نحتاج إلى علم القوة, لا بد لنا من علم القوة مع علم الحق, فعلم الحق يهدي و علم القوة يحمي, لماذا يُراد بهذه الأمّة أن تبقى هكذا ؟ لماذا لا نملك الإرادة؟, لا نصنع سلاحنا ؟, حكر على أعدائنا هذا السّلاح و هذه التقنية. لا بدّ من علم الدّين ليطفو علم القوة قال عزّ و جلّ "و أعدوا لهم ما استطعتم من قوة..." قال رسول الله صلّى الله عليه و سلّم: "ألا إنّ القوة الرمي ألا انّ القوة الرمي ألا إنّ القوة الرمي", فعلم القوة يهديه علم الحق, هكذا تعود الأمّة بإذن الله, و لا بد من حاكم عادل و عالم ناصح و عامل مخلص, فنعود بإذن الله سادة و قادة نعود, نحن أهل, هذه الأمّة أهل لتقود الأمم قال عزّ و جلّ: "و كذلك جعلناكم أمة وسطا...شهيدا" لعدالتنا, هذه أمّتنا و إنّي أختم هذا الدرس بأبيات تلخص هذا الدرس و أعتذر لمن سمعها من قبل:

العلم وحي الله قال و لم يزل
صدقا و عدلا بالتمام كما نزل
قال محمّد خير الرّسل
قال الصّحابة هم العدول
مادون ذلك فهو فضل قد فضل
لا يهتدي من فاق فيه و لم يصل
حتما و لو بلغ العنان إلى زحل
أوغاص في البحر أو خرق الجبل
إلا إذا بالوحي صدّق و امتثل
من غير فلسفة و صفصفة الجمل
و البحث و التنقيب عن سبب العلل
فالعلم بالتقوى و اخلاص العمل
أو فهو منقلب يروح و ينتقل
نحو العدول من الرجال سيرتحل
عند الثغور هناك تعرف الرّجل
أو خلف قضبان الزنازن معتقل
أو اجبروه على الإقامة بالمحل

أولئك العلماء خذ منهم وسل
و احذر سواهم من فتأواهم حيل
فالدّين ليس تجارة أو للبدل.

آداب طلب العلم

على طالب العلم أن يكون متأدبا إذا أراد أن يطلب العلم, فإنّ طالب العلم قد يحصلُ على علم دون أدب فلا ينتفع و لا ينفع, و الصّحابة رضي الله عنهم صاحبوا النّبي صلّى الله عليه و سلّم فتأدبوا بآدابه و تخلّقوا بأخلاقه, ثُمّ كان بعد ذلك العلم. دورات كثيرة في بلادنا لطلب العلم ... و التّحصيل قليل و الانتفاع قليل ... مدارس و معاهد و جامعات تحصل فيها على العلم دون أدب, فإنّ الأدب و الأخلاق تأخذها من الشيخ و من العالم كما أخذها الصّحابة من النّبي صلّى الله عليه و سلّم حين عايشوه على كلّ أحيانّه, فتأسّوا به, فإنّ النّاس لا يهمُّهم مدى علمك و لكن يهمّهم أخلاقك, يتأثّرون بالأخلاق الحسنة كما يتأثّرون بسوء الأخلاق, و لا يهمّ العلم, لأنّ الأدب هو نتيجة العلم. إذا تعلّمت و لم تتأدب لا يتأثر النّاس بك, و لذلك تتعطل الدّعوة أحيانا ليس لقلّة العلم بل لقلة الأدب و سوء الأخلاق, فعلى طالب العلم أن يكون على قدر من الأدب كي يحصل عل العلم من شيخه. و العلم يؤخذ من الأشياخ و العلماء كما كان السّلف الصالح. أخذ الصّحابة رضي الله عنهم العلم من النّبي صلّى الله عليه و سلّم و التابعون من الصّحابة و تابعوا التابعين من التابعين و هكذا, ثُمّ تغيرت الأحوال فأصبح الطالب يجلس على طاولة خشب فتتخشب أخلاقه و آدابه و لا يصل هذا العلم للنّاس لقلّة آدابنا, فكيف يكون طالب العلم متأدّبا ؟.

على طالب العلم أن يتأدب و يصبر و يتحلّم كي يحصل من شيخه على العلم لينتفع و ينفع

يقول عبد الله إبن وهب:"ما تعلّمت من مالك من أدبه أفضل من علمه" - و عبد الله إبن وهب تلميذ الإمام مالك عاش معه في طلب العلم عشرون عاما قال: " " مَا تَعَلَّمْتُ مِنْ أَدَبِ مَالِكٍ أَفْضَلَ مِنْ عِلْمِهِ ".
يقول أبو حنيفة: "الحكايات عن العلماء و مجالستهم أحبّ إلي من كثير من الفقه لأنّها آداب القوم و أخلاقهم".
كان طلاّب العلم يعيشون مع شيخهم على كلّ أحيانّه.

و قد أوصى النّبي صلّى الله عليه و سلّم بطالب العلم خيرا

في أثر أخرجه الحاكم في المستدرك و قال صحيح على شرط مسلم ووافقه الذهبي عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: "مرحبا بطالب العلم, كان النّبي صلّى الله عليه و سلّم يوصينا بكم". فهل مازال طُلاّب العلم يطلبون العلم على ما كان عليه السّلف الصالح ؟ الجواب: قليل, فالتحصيل قليل و النّفع أقلّ, و لذلك على طالب العلم أن يصبر أوّلا في طلب العلم. هذه الدورات جيدة لكن التّحصيل فيها قليل...مستعجلة.

كان طالب العلم يصاحب الشيخ لسنوات طويلة

في أثر أخرجه البخاري و مسلم عن إبن عباس رضي الله عنهما قال:" كنت أريد أن أسأل عمر عن المرأتين اللتين تظاهرتا على رسول الله صلّى الله عليه و سلّم فمكثت سنة فلم أجد له موضعا حتّى خرجت معه حاجا فلمّا كُنّا بظهران ذهب عمر لحاجته فقال أدركني بالوضوء فأدركته بالإداوة فجعلت أسكب عليه الماء ورأيت موضعا فقلت يا أمير المؤمنين من المرأتان اللتان تظاهرتا ؟. قال ابن عباس:"فما أتممت كلامي حتّى قال: "عائشة وحفصة". يقول: "أردت أن أسأل عمر" - إبن عباس فاته كثير من صحبة النّبي صلّى الله عليه و سلّم لأنّه أسلم قبيل الفتح بقليل, بأيام قليله, و قد خرج أبوه عباس رضي الله عنه إلى المدينة إبان خروج النّبي صلّى الله عليه و سلّم لفتح مكة فأدركه في الطريق فهو مهاجري و لم يعش مع النّبي صلّى الله عليه و سلّم إلاّ سنتان و ستّ أو سبعة أشهر يقول: "مكثت سنة كاملة" - لا يجرأ على عمر و عمر كان إماما, كان أمير المؤمنين, و كان إماما على المصلين و هو يصلّي معه و لم يتجرأ على عمر أن يسأله هذا السؤال, و ما قيمة هذا السؤال ؟ فالبعض يقول أي علم هذا؟ إنّه علم متعلق بكتاب الله, قال عزّ و جلّ " وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ ۖ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ " إذا لم تعلم من كتاب الله النّاسخ و المنسوخ, أسباب النزول, المُحكم من المتشابه, المُقيّد و المُطلق, الخاصّ من العام, و المفصل من المجمع فلست على علم. بعضهم يقول:"هذا علم تقليدي" - نعم تقليدي, فابن عباس يسأل عن هذه الآية عن سبب نزولها و يصبر سنة كاملة, فسأل عمر رضي الله عنه فانتفع و نفعنا لأنّه روى لنا هذا الحديث. نفع الأمّة من بعده ثُمّ في الحديث و الأثر خدمة الطّالب للشيخ و للعالم يقول "فجعلت أسكب عليه من إداوة" ثُمّ قال "رأيت موضعا" أي فرصة, فقال: "يا أمير المؤمنين" - إعظاما لشيخه, و هكذا يطلب العلم ثُمّ بعزيمة و صبر.

في أثر أخرجه الطبراني في معجمه و قال الهيثُمّي رجاله ثقات, قال ابن عبّاس رضي الله عنهما: "لمّا قضى رسول الله صلّى الله عليه و سلّم قلتُ لرجل: "هلُمّ نتعلّم من أصحاب النّبي صلّى الله عليه و سلّم فهُم كثير, فقال: "العجب و الله لك يا ابن عبّاس أترى النّاس يحتاجون إليك و في النّاس ما ترى من أصحاب النّبي صلّى الله عليه و سلّم ؟", يقول: "فركبتُ و جعلت أسأل و أتبع أصحاب النّبي صلّى الله عليه و سلّم, و إن كنت لآتي الرّجل في الحديث يبلغني أنّه سمعه من النّبي صلّى الله عليه و سلّم فأجده قائلا فأتوسّد ردائي على باب داره تسفي الرّياح على وجهي حتّى يخرُج إليّ, فيقول: "يا ابن عمّ رسول الله مالك ؟", فأقول: "حديثا بلغني انك سمعته من النّبي صلّى الله عليه و سلّم فأحبّ ان أسمعه منك, فيقول: "هلاّ أرسلت إليّ فآتيتك ؟ يقول: "أنا أحق أن آتي إليك", قال :"و كان ذلك الرّجل يراني, فذهب أصحاب رسول الله صلّى الله عليه و سلّم و احتاج النّاس إليّ, فقال: "أنت اعلم مني" - إبن عبّاس لمّا مات النّبي صلّى الله عليه و سلّم قال لصاحبه:"هلمّ نسأل", فقال له: "ما أرى النّاس يحتاجونك" - تزهّد في طلب العلم, فأصرّ ابن عباس على طلب العلم. يقول هذا الصّحابي لابن عبّاس - إعظاما لآل بيت النّبي صلّى الله عليه و سلّم - يقول له: "يا ابن عمّ رسول الله صلّى الله عليه و سلّم هلاّ أرسلت إلي فآتيك ؟" – لا يضربُ الباب, بل يصبر ثُمّ يتوسّد ردائه عند باب الدار لعلّ ذلك الرّجل يرى ابن عباس لمّا يخرج قدرا للصلاة أو لغير ذلك. يقول ابن عبّاس "ذللت طالبا فعززت مطلوبا" أي أذل نفسه و ذلّلها لطلب العلم.

يقول ابن مسعود رضي الله عنه: "ماعتز أحد بالله إلا احتاج النّاس إليه و ما عمل أحد بما علّمه الله عزّ و جلّ إلا احتاج النّاس إلى ما عنده" فاحتاج النّاس لابن عباس – تُرجمان القرآن و حبر الأمّة ابن عباس رضي الله عنهما.. انظر كيف طلب العلم, رأيناه كيف كان متأدّبا مع عمر رضي الله عنه, و هذه مع زيد ابن ثابت, كان ياتي باب داره فينتظره حتّى يخرج اليه و لذلك انتفع بالعلم, متأدّب قبل ان يتعلّم و لذلك انتفع و نفع. يقول أبو عبيد قاسم ابن سلاّم: "ما استأذنت قطّ على مُحدّث كنت أنتظره حتّى يخرج اليّ, و لقد تأوّلت قول الله عزّ و جلّ: "ولو أنّهم صبروا حتّى تخرج اليهم لكان خير لهم" - أبو عبيد قاسم بن سلاّم وُلد سنة 157 هـ و توفّي سنة 224 هـ, هو أوّل من ألّف كتابا في غريب الحديث, يقول:"ما استئذنت قطّ" - لم يُزعج شيخه حين يطلب العلم, ينتظر حتّى يخرج أو يجلس أمامه حتّى يتكلّم الشيخ, و ماهو العلم ؟ آية كريمة و حديث شريف و قول يوافق الآية و الحديث, هذا هو العلم.

آداب عالية جدا, و لذلك تعلّموا و تأدبوا, فلا بد من الصّبر على طلب العلم, ليس مثل هذه الدّورات القصيرة, جيدة لكن لا تكفي, "فمن أراد العلم لنفسه فقليل العلم يكفيه و من أراده للناس فحوائج النّاس كثيرة" كما قال الخليل ابن أحمد,

و على طالب العلم أن يوقّر شيخه و عالمه

في أثر صحيح أخرجه الحاكم في المستدرك أن ابن عبّاس أخذ بركاب زيد بن ثابت فقال له زيد: "تنحّى يا ابن عمّ رسول الله صلّى الله عليه و سلّم, فقال ابن عبّاس: "هكذا نفعل بكبرائنا و علمائنا" - و زيد ابن ثابت أعلم الصّحابة بالفرائض كما قال النّبي صلّى الله عليه و سلّم: "أفرض النّاس زيد", و قد جمع القرآن بأمر من أبي بكر الصّدّيق رضي الله عنه في حروب الرّدّة, فكان ابن عبّاس يأخذ بركاب دابته إعظاما و إجلالا لشيخه, و قال له: "هكذا نفعل بكبرائنا و علمائنا".

عن عبد الله بن بريدة عن أبيه قال: "كُنّا إذا قعدنا عند رسول الله صلّى الله عليه و سلّم لا نرفع رؤوسنا إليه إعظاما له" - فكانوا يجلسون عنده إعظاما و توقيرا له لا يرفعون رؤوسهم, و هكذا على طالب العلم أن يتأدّب مع شيخه.

يقول أبو الدرداء رضي الله عنه:" من فقه الرّجل ممشاه و مدخله و مخرجه مع أهل العلم" - أين هذا ؟, مصاحبة طالب العلم لشيخه أين هي ؟ ... قليل. يقول الإمام مالك رحمه الله: "إنّ حقّا على من طلب العلم أن يكون له وقار و سكينة و تخشّع و أن يكون متّبعا لأثر من مضى قبله" - من طلب العلم عليه أن يكون له وقار و سكينة و تخشع لله عزّ و جلّ, ثُمّ يكون مُتّبعا لمن مضى قبله و المقصود الصّحابة رضي الله عنهم و من تبعهم بإحسان إلى يوم الدّين.

في اثر صحيح أخرجه إبن عبد البرّ عن الأوزاعي قال: "عليك بأثر السّلف و إن رفضك النّاس و إيّاك و آراء الرّجال و إن زخرفوه لك بالقول" - و النّاس الآن يرفضون من يتأسّى بالسّلف يُعيّرونه بذلك, فعليك يا طالب العلم بأثر السّلف و إن رفضك النّاس.

يقول شعبة إبن حجّاج: "كلّ من سمعت منه حديثا فأنا له عبد" - و شعبة إبن حجاج أبو بسطان الازدي الواسطي وُلد سنة 80 هـ و قيل 82هـ و توفّي سنة 160 هـ, و هو أوّل من جرّح و عدّل, يقول الإمام الشافعي:"لولا شعبة ماعُرف الحديث بالعراق". يقول

احد تلاميذه حماد بن زيد يقول: - إجلالا لشيخه –"حدثني الضخم عن الضخام شعبة الخير أبو بسطان", و حقّ له أن يقول ذلك, فشعبة يقول: "كلّ حديث ليس فيه سمعت خلّ و بقل" – بالمشافهة, لا يقبل تدليسا. يقول: "لئن أخرّ من السّماء إلى الأرض خير لي من أن أُدلّس". يقول: "حفظت عن أبي الزبير المكّي أربعمائة حديث لا أرويها عنه - بل أقسم, قال: "لا و الله لا أرويها", قال:"لأنّي رأيت فخذه مكشوفا, فقلت له: "استر فخذك", فقال: "لا بأس" – جرّحه بهذه - , فلا أروي عنه, و في رواية قال: قلت:" رأيته يزن بميزان فاسترجح في الميزان فتركته". قال أبو داود الطيالسي:"دخلت على شعبة في المسجد و حوله النّاس كثير يسمعون منه الحديث, فاتكأ علي و قال: "أترى يخرج من هؤلاء محدّثون ؟", قلت: "قليل", قال له: "لا و لا خمس", فالحضور كثير, لكن من ينتفع ؟...قليل. شعبة ابن الحجّاج رحمه الله عبّاد صوّام, جلد على عظم يقول: "لو أوتيت دقيقا و قصبا ما أبالي بالدّنيا " - كثير عنده- يقول:" كلّ من سمعت منه حديثا فأنا له عبد" - يسمع الطّالب من شيخه كذا حديث بل آيات و لعلّه يحفظ القرآن ثُمّ أوّل من يُجرّح و يطعن فيه شيخه.

و لعلّ طالب العلم يشوب علمه بضحك و لعب و هزل.

في أثر صحيح أخرجه الدارمي عن علي رضي الله عنه قال: "تعلّموا العلم فإذا تعلّمتم فاكظموا عليه و لا تشوبوه بضحك و لا لعب فتمجّه القلوب ". فلا بد من الوقار لطالب العلم.

و أن يكون حليما

كان اللّيث بن سعد يقول لأصحاب الحديث: "تعلّموا الحلم قبل العلم" - و الليث بن سعد هو فقيه مصر و مُحدّثها وُلد سنة 94 هـ, و توفّي سنة 175هـ, كان وصّالا لأقرانه ميسور الحال, يرسل المال للإمام مالك و إلى ابن لهيعة و غيرهم. عبّادًا من أهل الحديث, يقول فيه الشافعي: "الليث ابن سعد أفقه من مالك لكن أصحابه لم يحظوا به, ما كتبوا عنه", و لكنّ علمه مبثوث في كتب السنّة و الحمد لله.

يقول عطاء بن يسار: "ما أوي شيئ إلى شيئ أزين من حلم إلى علم" - علم بدون حلم...النّفع قليل, و هذا الأثر في الدّارمي صحيح. عطاء بن يسار المدني وفاته سنة 100 هـ , و قيل 103 هـ, كان يُلازم مسجد النّبي صلّى الله عليه و سلّم. عطاء بن رباح المكّي يقول - تحلّما منه -:"إن الشاب ليُحدثني بحديث فأستمع له كأنّي لم أسمعه و لقد سمعته قبل أن يُولد",عطاء بن رباح المكي وفاته سنة 115 هـ, كان فراشه المسجد الحرام لعشرين عاما, كان أسود أفطس أعور أعرج اشن, و النّاس يحتاجونه, من يلتفت إلى هذ في هذا الزمان ؟

يأتيك طالب العلم بحديث يسألك ليختبرك أو ليستفزّك. يقول رجاء بن حيوة "ما أحسن الإسلام و يزينه الإيمان و ما أحسن الإيمان و يُزيّنه التقوى و ما أحسن التّقوى و يزينها العلم و ما أحسن العلم و يزيّنه الحلم و ما أحسن الحلم و يزينه الرّفق" - رجاء بن حيوة الازدي وفاته سنة 112 هـ, وهو الذي استأمنه سليمان بن عبد الملك في نقل الخلافة منه إلى عمر ابن عبد العزيز, كان أمينا

إماما محدّثا, من أقواله يقول :"من لا يؤاخي إلاّ من ليس فيه عيب قلّ صديقه, و من لا يرضى من صديقه إلاّ بالإخلاص له دام على سخطه, و من عاتب إخوانه على كلّ ذنب كثر عدوّه" - كلام جميل نعيشه, و النّاس إذا بصّرته بعيبه اهتز و غضب, و إذا رأيت من اخطأ عندك و يأنف من ارشادك له, فلا تدلّه على خطأه أمام شيخك فقد يُخطأ لذلك. يقول خالد ابن صفوان: "إذا أخطأ بحضرتك من يأنف من ارشادك فلا تردّ عليه خطأه فانك إن نبهته لذلك و سارعت في افادته و اكتسبت عداوته" - فانّه يعاديك و خاصة امام النّاس, و هذا من أدب الطالب أن لا ينقب على أخطاء شيخه يصبر على شيخه, فالحلم قبل العلم.

في حديث حسن أخرجه الخطيب البغدادي عن أبي هريرة رضي الله عنه رفعه:" إنما العلم بالتعلّم و إنّما الحلم بالتحلّم و من يتحرّى الخير يعطه و من يتوقّى الشرّ يُوقه"

على طالب العلم أن يكون حليما و أن يصبر و ألا يكون مُماريا لشيخه أو لغيره

يقول ميمون بن مهران: "لا تماري عالما و لا جاهلا, فإنّك إن ماريت عالما خزّن عنك علمه و إن ماريت جاهلا خشن صدرك". يقول ميمون بن مهران - و قد وُلد سنة 40 هـ توفّي سنة 117 هـ, من أقواله:" ثلاث لا تبلونّ نفسك بهنّ لا تدخلن على السّلطان و إن قُلت آمره بطاعة الله و لا تصغينّ بسمعك إلى هوى فلا تدري فيعلق قلبك منه و لا تدخلنّ على امرأة و ان قلت اعلمها كتاب الله" – و ما اكثر الهوى كل ما خالف شرع الله في الدّين- فلا تدري فيعلق قلبك منه و لا تدخلنّ على امرأة و ان قلت اعلمها كتاب الله" - إذا جئت تماري الشيخ يسكت و لا ينتبه اليك و يذهب عنك الكثير و إذا ماريت جاهلا خشن صدرك, تكلّم بغير العلم لبّس عليك - الأثر أخرجه الدارمي بسند صحيح. جاء رجل لميمون ابن مهران يخطبه في ابنته فقال ميمون: "لا أرضاها لك فهي تحبّ الحلي و الحُلل, قال: "عندي من ذلك كثير", قال: "فالآن لا أرضاك لها" - أي أنت لا تصلح لها الآن- ميمون بن مهران التابعي الجليل أخرج عنه أصحاب السّنن و الصّحاح إلاّ البخاري.

يقول ابن شهاب الزّهري: "كان أبو سلمة – عبد الرّحمان بن عوف - يُماري ابن عبّاس فحُرم بذلك علما كثيرا" - و ما اكثر من يماري الاشياخ و العلماء من طلاّب العلم, مستعجل يريد ان يكون على مستوى فُيُرى. يقول ابن جريج:" ما أخرجت ما استخرجت من عطاء إلاّ برفق منه" - بلطف و هدوء - إذا كنت فظا مُماريا لا يهتمّ بك الشيخ و لا تأخذ منه. يقول علي رضي الله عنه :"من حقّ العالم ألاّ تكثر عليه بالسّؤال – فليس دائما جاهز- و لا تُعنّته بالجواب – فذلك مبلغه من العلم - و ألاّ تلحّ عليه إذا كسل و لا تأخذ بثوبه إذا نهض و لا تغتابنّ عنده أحدا و لا تُفشينّ له سرّا - أنس ابن مالك بعثه النّبي صلّى الله عليه و سلّم على حاجة فسألته أمّ سليم فقال:"لا أفشي سرّ رسول الله صلّى الله عليه و سلّم - و لا تطلبنّ عثرته و إن زلّ قبلت معذرته و عليك بتوقيره و تعظيمه لله مادام يحفظ أمر الله و لا تجلس بين يديه فإن كانت له حاجة سبقت القوم إلى خدمته"

ابن مسعود حامل النّعلين و السّواك و العصا و الإداوة يدخل على النّبي صلّى الله عليه و سلّم بلا استئذان – يخدم شيخه - اخدم شيخك - و كان يخدم النّبي صلّى الله عليه و سلّم, لذلك تعلّموا و تأدّبوا, لا تمار شيخك.

و لا تبحث الكمال في رجل واحد, لا تبحث عن كمال العلم في شيخ واحد, مستحيل.

يقول بلال ابن مردة قال: "لا يمنعنّكم سوء ما تعلمون منا أن تقبلوا أحسن ما تسمعون منا" - قول الله و قول رسوله صلى الله عليه و سلم, و العلم الصّحيح يلزمك فاسمعه. إذا كان شيخك سمعت منه شيئا فاحفظه و اسمع منه و تعلّم منه لا تُجرّحه و تتركه فيذهب الكثير من العلم و الآن قليل هم طُلاّب العلم لانّهم جرّحوا الأحياء و الأموات, نقّبوا عن العيوب و الزلاّت و شهّروا بها و وقعوا في الغيبة و النّميمة فما نفعوا و لا انتفعوا.

عبد الرحمان ابن مهدي يقول:" ذاكرت عبيد الله بن الحسين القاضي بحديث وهو يومئذ قاض فخالفني فيه، فدخلت عليه وعنده ناسٌ سماطين– معه و ضدّه- فقال لي: ذلك الحديث كما قلت أنت، وأرجع أنا صاغرًا" - فلا بُدّ أن نخضع للحقّ جميعا و لا نستكبر. إذا كنّا لا نبحث عن كمال العلم في رجل واحد فهذا صحيح, كما قال تعالى: "و فوق كلّ ذي علم عليم".

يقول عامر الشعبي التابعي:" ما رأيت مثلي ما أشاء أن أرى أعلم منّي إلا رأيته" - هذا تواضع, إذا كان طالب العلم يريد العلم حقا لله فانّه سيتأدّب, سيتواضع.

و اطلب العلم بتوازن ... أحدث له عبادة

كما يقول أبو قلابة لأيوب السختياني: " يَا أَيُّوبُ ، إِذَا أَحْدَثَ اللَّهُ تَعَالَى لَكَ عِلْمًا ، فَأَحْدِثْ لَهُ عِبَادَةً ، وَلا يَكُنْ هَمُّكَ مَا تُحَدِّثُ بِهِ النَّاسَ" - فالعلم للعبادة لنعبد الله تعالى فليس غاية بل وسيلة, و لا بدّ على طالب العلم أن يكون متّزنا في طلب العلم و العبادة موفّقا بينهما, و طلب العلم عبادة زيادة على العبادة المفروضة.

يقول حسن البصري :"العامل بغير علم كالسالك على غير طريق, العامل بغير علم ما يفسد أكثر ممّا يصلح فاطلبوا العلم طلبا لا يضرّ بالعبادة و اطلبوا العبادة طلبا لا يضرّ بالعلم, فإنّ قوما طلبوا العبادة و تركوا العلم حتّى خرجوا بأسيافهم على أمّة محمّد صلى الله عليه و سلم, و لو طلبوا العلم ما دلّهم على مافعلوا" - العامل يعمل في دينه بغير علم شرعي كالسالك على غير طريق, لا يصل ثُمّ "العامل بغير علم ما يفسد أكثر ممّا يُصلح" - انظروا إلى المبتدعة كيف أفسدوا كثيرا بغير علم - أنت تطلب العلم و تعبد الله تعالى تتقرّب بالعلم إلى الله بالصّوم على سبيل المثال.

يقول وكيع ابن جرّاح:" كنّا نستعين على حفظ الحديث بالعمل به و كنّا نستعين في طلبه بالصوم".

قال الحسن:" فإنّ قوما طلبوا العبادة و تركوا العلم فخرجوا بأسيافهم على أمة محمّد صلّى الله عليه و سلّم" - و هم الخوارج في كلّ زمان و مكان, يستعجلون الأمور و لا يُلمّون بالواقع و لا يتعلّمون...حماس.

يقول أبو الفضل ابن النحوي, وُلد في توزر توفّي سنة 513هـ له نفس صوفي يقول:

أصبحت فيمن له دين بلا أدب و من له أدب عار من الدّين

أصبحت فيهم غريب الشّكل منفردا كبيت حسّان في ديوان سحنون

يدلّ على انّه قرأ المدونة كاملة - المدونة ليس فيها إلا بيت واحد لحسّان.

المدونة ليس فيها إلاّ بيت واحد من الشعر و هو بيت حسان بن ثابت رضي الله عنه:

و هان على صراط بني لؤي حريق بالبويلة مستطير

هذا من تلاميذ المازري و أبي الحسن اللخمي, لمّا ذهب اليه ليروي عليه صحيح البخاري ثُمّ قال له: "جئت لأنسخ كتابك التبصرة", قال له مازحا: "تريد أن تحملني في كفّك فعلمي كله هناك ".

ابن النّحوي رحمه الله سكب عليه تلميذه إداوة حبر على ثوبه الأبيض فتبسّم و لم يغضب – لحلمه –و قال: "أحسنت يا بنيّ دللتني على أيّ لون أُريد أن أصبغ ثوبي", و نزع ثوبه و بعث به إلى الصبّاغ, و هذا حلم من الشيخ على تلميذه. أدب الطالب و أخلاقه هي بضاعته التي يروّجها لعلمه و لدينه, فالنّاس لا يهمّهم كم تعلم بل يهمّهم أخلاقك و حسن المعاملة بين النّاس, فعلى طالب العلم أن يتأدّب و يتواضع.

صيانة العلم

كيف تحفظ علمك و تصونه ؟

هذا العلم الشرعي ميراث النّبي صلّى الله عليه و سلّم, كيف تحفظه ؟

يقول الحسن البصري رحمه الله تعالى: " يَبْعَثُ اللَّهُ لِهَذَا الْعِلْمِ أَقْوَامًا يَطْلُبُونَهُ , وَلا يَطْلُبُونَهُ حِسْبَةً ، وَلَيْسَ لَهُمْ فِيهِ نِيَّةً ، يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ فِي طَلَبِهِ كَيْلا يَضِيعَ الْعِلْمُ حَتَّى لا يَبْقَى عَلَيْهِ حُجَّةٌ" - من هم ؟ هؤلاء هم العلماء الذين اختارهم الله لحفظ العلم. العلماء ورثة الأنبياء, هذا العلم قد تكسبه و قد لا تنتفع به, قد تكون عالما و لا تنتفع بعلمك, و لا ينتفع به غيرك. تريد أن تكون شيئا في الدنيا ؟...ممكن. تريد أن تكون طبيبا ؟ تكون مهندسا ؟...تكون. تريد ان تكون عالما ؟...تكون, و لكن هل ينفع علمك أم لا؟...هذا اختيار الله تعالى, فقد اختار الأنبياء و النّبي صلّى الله عليه و سلّم, و النبوة ليست مكتسبة, و النّبي صلّى الله عليه و سلّم لم يعمل من أجل أن يكون نبيّا بل اختاره الله عزّ و جلّ, قال الله تعالى: " وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ ۘ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ " - هذا العلم مبني على الصّدق و العدالة, قال عزّ و جلّ: " وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ ۚ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ " - الصّدق و العدالة لا يُطلبان في المعاهد و لا في الجامعات و لا في المدارس, هذا من الله عزّ و جلّ, و كم من عالم ذو علم لم ينتفع به النّاس, و إذا أردت أن تكون عالما مُحافظا على هذا العلم فلا بدّ لك من خمس حتّى تحفظ هذا العلم. هذا العلم الذي يستنير به النّاس و يعرفون به دينهم, و الحلال و الحرام, و تنعدم الحياة بدون هذا العلم و تصير الحياة كحياة العجموات. هذا العلم الشرعي إذا اردت ان تصونه عليك بخمس أوّلها : معاهدة هذا العلم و تذاكره ثانيا أن تعمل به ثالثا لا تطلب به الدنيا و رابعا لا تاتي به السلاطين و خامسا لا تحدث به من لا ينتفع به و من ليس أهلا.

العلم ماهو ؟

العلم هو قال الله عزّ و جلّ و قال رسوله صلى الله عليه و سلم ثُمّ قال الصّحابة, هذا هو العلم الذي نعنيه.

إذا لم تتعاهد القرآن تنساه

في الصّحيحين عن أبي موسى الأشعري عن النّبي صلّى الله عليه و سلّم قال: "تعاهدوا القرآن, فوالذي نفسي بيده لهو أشد تفصّيا من الإبل في عقلها" - إذا لم ترتل القرآن,لا تقوم به, لا تتلوه آناء اللّيل و أطراف النهار, فانّه يذهب منك العلم, تنساه, و افضل طريقة للحفاظ على القرآن أن تعلّمه غيرك, فلا تنساه و تقوم به و ترتّله لا تنساه.

و تبليغ القرآن تحفيظه و تعليمه

في حديث رواه البخاري عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أنّ النّبي صلّى الله عليه و سلّم قال: "بلّغوا عنّي و لو آية و حدّثوا عن بني إسرائيل و لا حرج, و من كذب عليّ متعمدا فليتبوّأ مقعده من النّار" - هل في مجالسنا نبلّغ و لو آية ؟ أم هي مجالس غيبة و نميمية ؟. "بلّغوا عنّي و لو آية" - تكون أدّيت الواجب و صُنت علمك و هو القرآن, حفظت القرآن. "و حدّثوا عن بني إسرائيل" – اليهود, و كم تحدّث القرآن عن بني إسرائيل اليهود. "و من كذب علي متعمدا فليتبوأ مقعده من النار".

في حديث صحيح رواه الترمذي عن ابن مسعود قال: "سمعت رسول الله صلّى الله عليه و سلّم يقول: "نظّر الله امرأ سمع منّا شيئا فبلّغه كما سمعه, فرُبّ مبلّغ أوعى من سامع" - و في رواية: "فربّ حامل فقه إلى من هو أفقه منه".

"نظر الله امرأ" - و قد بلغنا حديث النّبي صلّى الله عليه و سلّم و كتُب السنّة متوفّرة جميعا, و لا تقل لي فلان عالم ما لم يقل قال الله قال رسوله قال الصّحابة, فيجب أن نُبلّغ عن النّبي صلّى الله عليه و سلّم. هذا العلم منقول عن الله تعالى في كتابه و عن النّبي صلّى الله عليه و سلّم كما نقله لنا الصّحابة رضي الله عنهم و التابعون و العدول من بعدهم إلى أن بلغنا.

في أثر صحيح أخرجه إبن أبي شيبة في مصنفه و أخرجه الدارمي في سننه عن ابن بريدة قال: "قال لي علي: "تزاوروا و تذاكروا هذا الحديث فإنّكم إلاّ تفعلوا يدرُس علمُكم" - و قلّ أو لا يكاد يوجد من يتزاور فيتذاكروا الحديث و درُس علم النّاس الآن. المجالس ليس فيها تذاكر حديث النّبي صلّى الله عليه و سلّم, و من يأت و يسأل عن الحديث هم قليل.

و أخرج ابن أبي شيبة في مصنّفه بسند صحيح عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: "تذاكروا الحديث, فإنّ الحديث يَهيج الحديث" - إذا ذكرنا الحديث يهيج الحديث هذا مع من ؟ مع حُفّاظ الحديث النّبوي و هم قليل أو لا يكاد يوجد.

يقول الحسن البصري في أثر صحيح أخرجه الدارمي يقول: "غائلة العلم النسيان" – "غائلة العلم" أي آفته, إذا لم نتذاكر نسينا.

يقول يحيى إبن أبي كثير:"الذي يكتب و لا يُعارض مثل الذي يدخل الخلاء و لا يستنجى" - الذي يكتب الحديث ثُمّ لا ُيعارض, يأتي لمن هو أعلم منه و يُعارض ما معه من الحديث حفظا قال:"مثل الذي يدخل الخلاء و لا يستنجى", هذا الأثر أخرجه الخطيب في الكفاية بسند حسن - أعني الخطيب البغداي.

يقول يحيى ابن كثير: "لا يُستطاع العلم براحة الجسد" - يحيى ابن أبي كثير توفّي سنة 129هـ من صغار التّابعين, يقول فيه أحمد ابن حنبل: "إذا اختلف الزّهري مع يحيى ابن كثير فالقول قول يحيى ابن كثير". الشرط الأول أن تصون هذا العلم, أن تذاكر و تتعاهد القرآن كي لا يدرُس علمك و لا يذهب, فهذا الشرط الأول.

الشرط الثاني أن تعمل بالعلم عندها يصان علمك

قال رجل لإبراهيم بن الأدهم: قال عزّ و جلّ: "ادعوني استجب لكم", فما بالنا ندعو و لا يستجاب لنا ؟, قال إبراهيم: "لأجل خمس أشياء: عرفتم الله فلم تؤدوا حقّه, و قرأتم القرآن و لم تعملوا به, و قُلتم نحبّ رسول الله صلّى الله عليه و سلّم و تركتم سنّته, و قلتم نلعن إبليس و أطعتموه, و الخامسة تركتم عُيوبكم و أخذتم في عيوب النّاس". إبراهيم بن الأدهم الزاهد العابد المتوفّى سنة 162هـ من أقواله: "كلّ ملك لا يكون عادلاً فهو و اللّصّ سواء, و كلّ عالم لا يكون تقيا فهو و الذنب سواء, و من ذلّ لغير الله فهو و الكلب سواء".

" كلّ ملك لا يكون عادلاً فهو و اللّصّ سواء": كيف يكون عادلا و هو لا يحكم بما أنزل الله ؟, ثُمّ قال: "كلّ عالم لا يكون تقيا فهو و الذئب سواء" - العالم أمين و هذا الدّين أمانة عند العلماء, إذا أضاعوه وأكلوا به فهم ذئاب, "و الذي يذلّ لغير الله فهو و الكلب سواء", فالذلة لله فقط و تذلّ من اجل ماذا ؟ دنيا لمن لا يملكها ؟ فأنت و الكلب سواء, على قول إبراهيم ابن الأدهم. يقول بقية:" كنّا في البحر و معنا ابراهيم ابن الأدهم فهاجت الرّيح و اضطربت السّفينة, فبكوا فقالوا: "يا أبا إسحاق ماترى", فقال: "يا حيّ حين لا حيّ, يا حيّ قبل كلّ حيّ, يا حيّ بعد كلّ حيّ, يا حيّ يا قيّوم, يا محسن يا مجمل قد أريتنا عظمتك فأرنا عفوك, فهدئت السفينة", قال عزّ و جلّ:" فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدّين", و دعا إبراهيم بهذا الدعاء.

دعا بهذا الدّعاء: "يا حيّ حين لا حيّ" - حين يموت النّاس جميعا, "يا حي قبل كل حيّ" - فهو الحي قبل أن تكون الأحياء و هو حيّ حين تنتهي الحياة, ثُمّ قال: "يا حيّ يا قيّوم يا مُحسن يا مُجمل...عفوك, فهدئت السفينة".

يقول إبراهيم ابن الأدهم: "عرفتم الله" - فما حقّ الله علينا ؟ أن نعبده و لا نشرك به شيئا, الله وحده الرّزّاق الذي يُحيي و يُميت فالرّزق بيد الله. العبادة ماهي ؟ العبادة كما عرّفها شيخ الإسلام رحمه الله: "كلّ ما يُحبّ الله و يرضى من قول أو فعل أو عمل سرّا أو جهرا, فليست العبادة صلاة و صيام و صدقة و حج فقط, بل الخوف و الولاء و البراء و قال: "قرأتم القرآن و لم تعملوا به" - ماذا في االقرآن ؟ حلال و حرام, طاعات, أوامر و نواهي, هل ائتمرنا بالقرآن ؟, ثُمّ قال: "قلتم نحبّ النّبي صلّى الله عليه و سلّم و تركتم سنته", ثُمّ قال: "وقلتم نلعن إبليس" - و النّاس يلعنون إبليس لكن يُطيعونه فيستجيبون فهم كذّابون حين يرونه و يطيعونه.

و الخامسة: "تركتم عيوبكم و أخذتم في عيوب النّاس" - النّاس لا يرون عيوبهم إنّما يرون عيوب الآخرين و ينقّبون عن عيوب الآخرين فما قاله إبراهيم ابن الادهم حاصل بين النّاس, فلا بدّ من العمل بهذا العلم لتصونه.

يقول حبيب بن عبيد - و الأثر صحيح رواه الدارمي - :"كان يقال: "تعلّموا العلم و انتفعوا به و لا تعلّموه لتتجمّلوا به فإنّه يوشك إن طال بكم العمران أن يتجمّل ذو العلم بعلمه كما يتجمّل ذو البزّة ببزّته".

"و لا تعلّموه لتتجمّلوا به فانّه يوشك إن طال بكم العمران أن يتجمّل ذو العلم بعلمه" - أشياخ ترونهم, تسمعونهم, يتجمّلون بالعلم لا يأمرون و لا ينهون, و لا يعملون بالعلم, إنّما هو وظيفة و ليس أمانة عندهم, و لذلك يتجمّلون به في المجالس ليُقال فلان, و

من هو صاحب البزّة ؟ العسكري و الشّرطي ما قيمته بدون البزّة ؟, كذلك الذي لا يعمل بالعلم ما قيمته ؟ لا شيئ, فالنّاس يوعظون بالأعمال أكثر مما يتعظون بالأقوال, إذا نزع بزته ما قيمته في الشارع ؟ و إذا خرج على المعاش و التقاعد ما قيمته بدون بزة ؟

في أثر صحيح أخرجه الدّارمي عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: "لا تكون عالما حتّى تكون متعلّما و لا تكون بالعلم عالما حتّى تكون به عاملا و كفى بك اثُمّا الا تزال مخاصما و كفى بك اثُمّا ألاّ تزال مُماريا و كفى بك إثُمًا ألاّ تزال محدثا في غير ذات الله" - و هذا حديث موقوف على أبي الدرداء رضي الله عنه.

هذا العلم يُطلب يُتعلّم, يجب أن تبذل و تجتهد في طلب العلم الشرعي, ثُمّ لا تكون به عالما حتّى تكون به عاملا, "و كفى بك إثُمّا ألاّ تزال مخاصما" - المجادلون بهذا العلم في مجالس العلم يمارون, "كفى بك إثما ألاّ تزال مُماريا" - الذين يمارون السفهاء يجادلون بهذا العلم.

"و كفى بك كذبا الا تزال محدثا في غير ذات الله" – هذا العلم لله, تحدّث به لله لا لسمعة و لا رياء و لا تزلّف للسّلاطين و لا لشيئ, و هذا العلم علم شرعي كلّ مداره على ذات الله عزّ و جلّ, "و كفى بك كذبا ألاّ تزال مُحدّثا في غير ذات الله".

يقول سفيان الثوري: "إنّ العلماء إذا علموا عملوا و إذا عملوا شُغلوا و إذا شُغلوا فُقدوا و إذا فُقدوا طلبوا و إذا طلبوا هربوا" – "العلماء إذا علموا عملوا" - أول من يعمل هم, ثُمّ "إذا عملوا شُغلوا" - عن النّاس, لا تجد فرصة معه, :و إذا شغلوا فُقدوا" - بين النّاس انشغل بطاعة الله, "فإذا فُقدوا طلبوا" - طلبهم النّاس, "فإذا طُلبوا هربوا" - لا يريدون الاختلاط مع النّاس, يخشون ضياع أوقاتهم في غير العمل لله, و أوقاتنا كثيرة مهدورة.

يقول سلمان: "يوشك أن يظهر العلم و يُخزّن العمل و يتواصل النّاس بألسنتهم و يتقاطعون بقلوبهم فإذا فعلوا ذلك طبع الله على قلوبهم و على سمعهم و على أبصارهم" - الحديث موقوف أخرجه إبن عبد البر.

"يظهر العلم و يُخزّن العمل" - يعلمون و لا يعملون, كلّ المسلمين تقريبا يعلمون المعلوم من الدّين بالضرورة على الأقل في التوحيد, في العبادات, يظهر العلم...نعم ظهر العلم, في الفضائيات, القنوات كثيرة و العمل مخزون لا يعملون بالضرورة.

"يتقاطعون بقلوبهم" - في المسلمين, ألسنتهم مع بعضهم و قلبوهم على بعضهم, أي في قلوبهم أشياء على بعضهم من الحسد و البغضاء و الحقد.

"ختم الله على قلوبهم و على سمعهم و على أبصارهم" أي لا يفقه شيئا إذا علموا لا يفقهون.

يقول ابن مسعود رضي الله عنه: "من اعتز بالله احتاجه النّاس, و ما من أحد يعمل بما علّمه الله الا احتاج النّاس إلى ما عنده" – لا يكون عنده جاه و لا وظيفة و لا مال, و لكنّه عزيز فيغبطه النّاس, ترى عالما لا يعمل لا يحتاجه النّاس, و ترى من هو اقلّ علما منه لكنه مُجتهد فيحتاجه النّاس, فالنّاس يوعظون بالاعمال قبل الأقوال.

يقول أيوب السختياني: "قال أبو قلابة: "يا أيوب إذا أحدث الله لك علما فأحدث له عملا و لا يكون همّك لتحدّث به" - أبو قلابة هو عبد الله بن زيد بن عمر توفّي سنة 104هـ ترك كتبا أوصى بها لأيّوب السختياني, قال لأيوب - هؤلاء من صغار التابعين – "إذا احدث الله لك علما أحدث له عملا" - و كم من مُحدّث لا يعمل بما يعلم, فالشرط الثاني أن تكون عاملا بهذا العلم.

الشرط الثالث لا تطلب به الدنيا

وردت احاديث في ذلك ما أخرجه الطبراني في الكبير و هو حسن عن أبي موسى قال:"قال رسول الله صلّى الله عليه و سلّم: "إنّ هذا الدّينار و الدّرهم أهلك من كان قبلكم و ما أراهم الا مهلكيكم" - يا من له علم لا تطلب بعلمك الدنيا.

في حديث صحيح رواه أحمد و الترمذي عن كعب إبن عياض يقول:"سمعت النّبي صلّى الله عليه و سلّم يقول: "إنّ لكلّ أمّة فتنة و فتنة أمتي المال" - من يطلب العلم لا يبحث عن المال.

و روى كعب بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلّى الله عليه و سلّم:"ما ذئبان جائعان أرسلا في غنم بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه" - الذئبان الجائعان إذا دخلا الغنم أفسداها , فالبحث عن الشرف و المال و أنت ذو علم إذا فعلت ذلك افسدت علمك لا يتأسّى بك النّاس لا تبحث عن هذا.

و طالب العلم مرزوق بإذن الله تكفل الله برزقه, إذا كنت من أرباب العلم

في حديث صحيح أخرجه الترمذي و أحمد و اللّفظ لأحمد عن أنس أنّ اخوين كانا على عهد النّبي صلّى الله عليه و سلّم أحدهما يحضر حديث رسول الله صلّى الله عليه و سلّم و مجلسه و كان الآخر يقبل على صنعته فقال الآخر: "إنّ أخي لا يعتن بشيئ فقال: "فلعلك ترزق به" - كم من مرزوق يُرزق بغيره من أهل العلم الرّبّانيين, قال: "لعلّك تُرزق به" - لانّه يحضر حديث النّبي صلّى الله عليه و سلّم.

و هذا العلم لا يُطلب به و لا يماري به و لا تُخيّر به المجالس

في حديث صحيح أخرجه ابن ماجة و ابن حبان و هو صحيح: "لا تعلّموا العلم لتباهوا به العلماء و لا لتماروا به السّفهاء و لا لتخيّروا به المجالس, فمن فعل ذلك فالنّار النّار" - تجادله و يجادلك من عنده, من عقله, من رأيه, ليس له دليل, و انت تماري هذا السفيه, من لا يتكلم بقال الله قال رسوله فهو من السفهاء.

"و لا تخيروا به المجالس" حوله كم طالب يقع في نفسه.

يقول سفيان الثوري: "العالم طبيب الدّين, و الدّرهم داء الدّين فإذا اشترى الطبيب الداء لنفسه فمتى يداوي غيره" ؟, إذا كان هو من طلاّب المال الذين يلهثون على الدّنيا و يدّعي انّه من أهل العلم, فلا يكون ذلك.

يقول الحسن بن صالح - متوفّى سنة 169هـ متقن ثقة مأمون, و لكنّه يرى بالخروج على الظلمة و لا يصلّي خلفهم لكنه من الثقات, يقول: "إنّك لا تفقه حتّى لا تبالي بيد من وقعت الدنيا".

يقول سفيان الثوري: "كان يُقال: "تعوّذوا بالله من فتنة العابد الجاهل, و فتنة العالم الفاجر, فإنّ فتنتهما فتنة كل مفتون" - عبّاد يراه النّاس الجاهلون فإذا النّاس يتأسّون به, قد يقتادون به وهو جاهل, و نتعوذ بالعابد الجاهل و أيضا من العالم الفاجر, ذو علم و لكنه فاجر على معصية, يحلّ الحرام و يعصي و أنت تعلم انّه على علم, يصافح النساء, يعلم الغناء و يُقال لك: "لا بأس فإنّه أعلم منك", نتعوذ بالله من العالم الفاجر و العابد الجاهل, إذا تتأسّى بعابد جاهل و هو على خطا على بدعة و تراه عالما فاجرا و تظن أنّ ذلك يجوز.

أرسل إسماعيل بن عُليّه – وُلد سنة 110هـ توفّي سنة 193هـ, حافظ متقن ثقة - حين وُلي على العشور - يعني الصدقة - أيام هارون الرشيد, كتب إلى عبد الله بن المبارك يستمدّه برجال من القرّاء ليعينوه على ذلك فكتب إليه عبد الله بن المبارك:

يا جاعل العلم له بازيا يصطاد أموال المساكين

احتلت بالدنيا و لذّاتها بحيلة تذهب بالدّين

فصرت مجنونا بها بعد أن كنت دواء للمجانين

فأين روايتك فيما مضى عن إبن عون و إبن سيرين

و درسك العلم و آثاره و تركك أبواب السلاطين

تقول اكرهت فماذا كذا زلّ حمار العلم في الطين

عبد الله بن المبارك – المتوفى سنة 181هـ, المحدّث العالم المُجاهد, عندما مات و لم يكن مواليا لهارون الرشيد جلس هارون الرشيد في مجلسه يتقبل العزاء, استغنى عن السلاطين فعزّ عند الحكّام و الأُمراء, كان مُجاهدًا على الثغور. إسماعيل بن علية أخذ وظيفة عند هارون الشريد - و هو من الثقات - كتب رسالة يستمد رجالا من القراء - و القرّاء على الثغور – ليُعينوه, يريدون موظفين عند الدولة فكتب له أبياتا.

"يا جاعل العلم له بازيا" - الباز هو نوع من الطير الجوارح يُصطاد به.

"فصرت مجنونا بها" - أي بالدنيا بعد أن كنت دواء بالعلم, تصبّرهم, "فأين روايتك" - كان من رواة الحديث, و هو من رواة الحديث و لقّبوه إبن علية لأن أمه اسمها علية, و كان يروي عن إبن عون و إبن سيرين و هم من رواة الأحاديث, الآن هو مع السلاطين له وظيفة.

هذه مقولة عبد الله بن المبارك رحمه الله. يقول أبو حازم: "إذا كان ما يكفيك لا يغنيك فليس شيئ في الدّنيا يغنيك". هذه الوظائف التي أذلّت المسلمين, و لن يكون عالما مُوظّفا تحت الدّولة أبدا حتّى يتبرّأ و يُخلص لله, يطلب العلم لله. في أثر حسن أخرجه البخاري في الأدب المفرد عن أبي ظبيان الأسدي قال: "قال لي عمر: كم عطاءك يا أبا ظبيان ؟, قال: ألفان و خمسمائة, قال: "اتّخذ من الحرث و السابياء قبل أن يتولّى غلمة قريش فلا يعدّ العطاء معهم مالا", يعني استغن عن ارتباطك بالدولة. عمر الفاروق رضي الله عنه يقول لأبي ظبيان الازدي اليمني: "كم عطائك ؟" - الدولة تنفق على كلّ المسلمين, و الآن المسلمون يدفعون ضرائب للحكومات, الأصل هو العكس, فقط الدولة التي تعطي للموظفين الذين عندها للعبيد الأرقّاء الذين عندها و يتفاوتون في الرّواتب, فهذا المال يقسّم بين المسلمين, لماذا هم فقراء و مرضى ؟ لأنّ ثروات المسلمين لا تُقسّم بالسّواسية بينهم.

قال له عمر - لأن عمر يعلم أن غلمة من قريش ستتولى و تذهب الخلافة الراشدة – "اتخذ من السأبياء" أي المواشي من قبل ان يتولى غلمة قريش - و هم بنو امية - "فلا يُعدّ العطاء عندهم مالا" - يكون موالاة و ذلة, إذا لم توالِيني لا تتوظف, فهذا الشرط الثالث حتّى تصون العلم.

الرابع: ألا تأتي السلاطين

يقول حذيفة رضي الله عنه: "اتّقوا مواقف الفتن, قال:"أبواب الأمراء, يدخل أحدكم على الأمير فيصدّقه بالكذب و يقول له ما ليس فيه" - اتقوا مواقف الفتن يا أيّها العلماء, يا أيها الاشياخ, يا علماء الأمّة.

لا يستطيع أن يقول للملك هذا باطل, هذا ظلم, يسكت, إذا لم ينزل عن شيئ من دينه للأمير يسكت, و هذا ركون, لا تذهب إليه, "يقول له ما ليس فيه" يا سموّ, يا فخامة, يا سيادة و هكذا.

يقول ابن مسعود رضي الله عنه:" إنّ على أبواب السّلطان فتن كمبارك الإبل, و الذي نفسي بيده لا تُصيبون من دُنياهم شيئا إلاّ أصابوا مثل ذلك من دينكم" – لا يُعطيك شيئا إلاّ أن تكون مُواليا, تواليه على ماذا ؟ و هو لا يحكم بما أنزل الله, "إلاّ أصابوا من دينكم مثله" - و لعلّه أكثر. لمّا حجّ هارون الرّشيد - و هو من أفضل خلفاء بني عباس وُلد سنة 148هـ و توفّي سنة 193هـ مات مجاهدا في خراسان و قبره في طوس. هذا الخليفة لمّا حجّ قدم على المدينة فبعث إلى الإمام مالك كيسا بخمسمائة دينار, فلمّا قدم إلى المدينة أرسل إلى مالك أنّ الأمير يحبُّ ان تنتقل معه إلى مدينة السلام, فقال مالك لرسوله: "قل له إنّ الكيس بخاتمه و إنّ

رسول الله صلّى الله عليه و سلّم قال: "و المدينة خيرٌ لهم لو كانوا يعلمون". هارون الرشيد - اعتمر مرّة و بقي على إحرامه إلى الحج, و كان يمشي على قدميه, فيه دين - أرسل كيسا فيه خمسمائة دينار لمالك فلم يفتحه, فلمّا قدم على المدينة و هي في طريقه إلى العراق يظن انّه اشترى مالك رحمه الله بهذه الخمسمائة دينار, فقال لرسوله:"قل له ان الكيس بخاتمه" - لم يفتحه الإمام مالك, و ان رسول الله صلّى الله عليه و سلّم قال: "و المدينة خير لهم لو كانوا يعلمون", "مدينة السلام" - يعني بغداد, و لم يطعه.

يقول إبن حازم: "إنّ العُلماء كانوا يفرّون من السّلطان و هو يطلبهم, و انّهم اليوم يأتون أبواب السّلطان وهم يفرّون منهم".

الإمام مالك و غيرهم من علماء الأمّة الأبرار رحمهم الله كانوا لا يأتون أبواب السلاطين إلاّ ناصحين أو ليرفعوا عن أحد مظلمة جاز ذلك.

يقول أبو قلابة لأيوب السختياني: "احفظ عني ثلاث خصال: إيّاك و أبواب السّلطان, و إيّاك و مجالسة أصحاب الهوى, و الزم سوقك فإنّ الغنى من العافية" - و أبو قلابة يوصي أيوب و هو من أبرّ تلاميذه, و هذا الكلام في القرن الأول من الهجرة. "و إياك و مجالسة أصحاب الأهواء" - الذين يتكلّمون في الدّين برأيهم أصحاب هوى كلّهم, "و الزم سوقك" - يا مسلم لا تحتاج إلى أحد. دخل الحسن البصري السوق فساوم رجلا بثوب فقال له: "خذه بكذا و كذا والله لو كان غيرك ما أعطيته" – علمه من أهل الفضل فأكرمه, يعني أنّ الحسن رأى نفسه يأكل بدينه, زهد و ورع و تقوى – فقال: "أوقد فعلتموها ؟", فما رؤي يومها شاريا و لا بائعا حتّى مات. رواه الدارمي و الأثر حسن.

أهل العلم و الأشياخ يذهبون إلى من ؟ ليجلّوهم و ليعظموهم و ليكرّموهم على دينهم, على علمهم العلم الشرعي ؟ حسن البصري ترك السوق لأنّه رؤي فيه و لم يذهب.

قسّم مصعب ابن الزبير مالا على قرّاء أهل الكوفة حين دخل شهر رمضان, فبعث إلى عبد الرحمان بن معقل ألفي درهم, فردّ عليه: "إنّا لم نقرأ القرآن لهذا ؟" - لا يريد مكافأة على دينه, هذا فعل خيرا مصعب بن الزبير قسّم المال على العلماء الحفاظ القرّاء, و بعث لعبد الرحمان بن معقل ليستعين بها في شهر رمضان, قال: "إنّا لم نقرأ القرآن لهذا".

في أثر صحيح أخرجه الدارمي عن عمر انّه قال لعبد الله بن سلام قال له: "يا عبد الله, من أرباب العلم ؟ قال: "الذين يعملون بما يعلمون", قال: "و ما ينفي العلم من صدور الرجال ؟", قال: "الطّمع" - و عبد الله بن سلام أسلمَ - قال له عمر: "من أرباب العلم؟", قال: "الذين يعملون بما يعلمون", و هم العلماء الربانيون الاتقياء الابرار, الذين لا يتمذهبون و لا يتحزّبون إلا لله, دينهم الإسلام و ربهم الله و نبيهم محمّد صلى الله عليه و سلم يقولونها و لو كرهها الكارهون.

عندما ترون علماء الأمّة يأكلون من كدّ بيمنهم بعرق جبينهم فأبشروا. يقول شقرار بن علي القيرواني رحمه الله للنون المصري من علماء الصوفية يقول له: "كل من كدّ يمينك ممّا عرق منه جبينك و لا تاكل بدينك فإن ضعف يقينك فاسأل الله يعينك".

الشرط الخامس ألاّ تضع هذا العلم في غير أهله فيضيع

في أثر صحيح أخرجه الدّارمي عن كثير بن مرّة و هو من كبار التابعين روى عن عمر و عن معاذ و أبي هريرة و عبادة بن الصامت يقول كثير بن مرة الحضرمي :"لا تحدّث الباطل للحكماء فيمقتوه, و لا تحدّث الحكمة للسّفهاء فيكذّبوك, و كفى بك اثْمّا أن تضع هذا العلم في غير أهله, و لا تمنع العلم أهله فتجهل, فإنّ لعلمك عليك حقا كما لمالك عليك حقا" - الحكماء يمقتون الباطل و السّفهاء يكذّبوك إذا حدثتهم بقال الله قال رسوله صلى الله عليه و سلم, و لا تضع العلم في غير أهله فيضيع, لا تمنع العلم أهله فتجهل هذا العلم لا يحدّث به السفهاء.

يقول شعبة بن الحجّاج: "رآني الأعمش أحدّث أقواما, فقال: "يا شعبة ويحك أتعلّق اللؤلؤ في أعناق الخنازير ؟" – تقول له قال الله قال رسوله صلى الله عليه و سلم يكذبك لأنك لم توافق حزبه.

يقول ابن مسعود رضي الله عنه: "إنكم لا تزالون بخير مادام العلم في كباركم فإذا كان العلم في صغاركم سفّه الصّغير الكبير" - و الصغير هو صغير العلم الذي لم يتمكن من العلم.

يقول عكرمة: "إنّ لهذا العلم ثُمّنا, قيل: "و ما ثُمّنه ؟", قال: "لا تحدّث به إلاّ من يحفظه و يصُونه". هذا العلم إذا لم تصُنه و لم تحدّث به أهله يضيع, و عكرمة أبو عبد الله القرشي تلميذ ابن عباس بربري من هذه البلاد يقول: "تعلمت العلم لأربعين عاما و كنت أفتي على الباب و ابن عباس داخل الباب. يقول: "كان ابن عباس يضع على رجلي الكبل ليعلمني القرآن و السنن", من أبرز العلماء رُمي برأي الخوارج جاء للقيروان و علّم في مسجد عقبة لسنوات طويلة و بث علمه بعد وفاة إبن عباس قدم القيروان و كان يجلس غرب المئذنة علّم العلم و هو من أكبر علماء التفسير.

يقول سليمان الأحول: لَقِيتُ عِكْرِمَةَ ، وَمَعَهُ ابْنٌ لَهُ ، فَقُلْتُ لَهُ : أَيَحْفَظُ هَذَا مِنْ حَدِيثِكِ ؟ فَقَالَ : إِنَّهُ يُقَالُ : " إِنَّ أَزْهَدَ النَّاسِ فِي عَالِمٍ أَهْلُهُ" - من كذّب النّبي صلّى الله عليه و سلّم و هو نبي ؟ ...قومه, و كلّ عالم في أهله مزهود فيه, هذا كلام صحيح. لا يأخذون عنه كثيرا حتّى إذا ما فقدوه طلبوا من اثره فلم ينتفعوا به إلاّ قليلا.

يقول الشافعي رحمه الله :

و التبر في أرضه نوع من الترب — و العود في الغاب نوع من الحطب
فإن تغرب هذا عز مطلبه — و إن تغرب ذاك عز كالذهب

لما دخل الإمام الشافعي رحمه الله مصر جفاه أصحاب مالك المتمذهبون, تركوه و قاموا عنه, لم يجلسوا, كذلك أصحاب الأحزاب و إن كنت على الحق, فهذه سُنّة ماضية لكنه قال أبياتا جميلة:

أأنثر الدرّ بين سارحة النّعم أأنثر منثورا لراعية الغنم

لعمري إن ضيّعت في شرّ بلدة فلست مضيّعا فيهم درر الكلم

فإن فرّج الله اللّطيف بلطفه و صادفت أهلا للعلوم و للحكم

بثثت مفيدا و استفدت ودادهم و إلاّ فمخزون لديّ و مكتتب

و من منح الجهال علما أضاعه و من منع المستوجبين فقد ظلم

لا تمنح هذا العلم الجُهّال فيضيع, و إذا أردت أن تحفظ هذا العلم لا تحدّث به من لا ينتفع به فيضيع. الذي يترك العلم الشرعي كالأنعام بل أضلّ سبيلا, هكذا قال الإمام الشافعي رحمه الله لمّا قدم مصر, ضيّعوه, ما أخذوا عنه العلم. فيقول: "أنا أيضا لا أبث العلم فيمن ليس أهلا له", إذا لقي من هو أهل بثه و أعطاه, يوقل:" بثثت مفيدا و استفدت ودادهم و إلاّ فمخزون لديّ و مكتتب".

صيانة العلم الشرعي: أن تذاكر و ان تعمل به و الا تطلب به الدنيا و الا تأتي به السلاطين و لا تحدث به من ليس له أهل.

روى أبو دواد و ابن ماجه و الترمذي بسند صحيح عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: "سمعت رسول الله صلّى الله عليه و سلّم يقول: "من سلك طريقا يطلب فيه علما سهل الله به طريقا إلى الجنة و إنّ الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يصنع و ان العالم ليستغفر له من في السماوات و الأرض حتّى الحيتان في الماء و إن فضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب و ان العلماء ورثة الأنبياء, إنّ الأنبياء لم يورّثوا درهما و لا دينارا و انما ورّثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظّ وافر".

